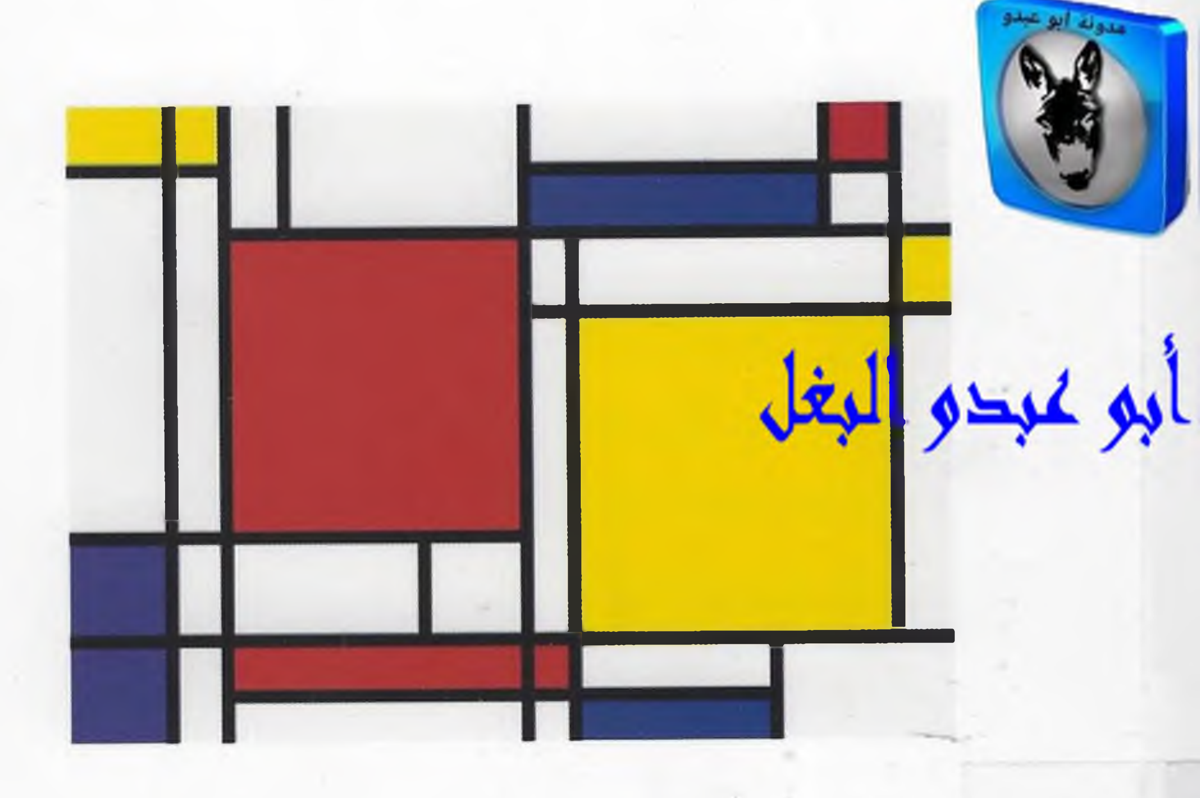
K H A L E D J A M I L S H A M M O U T



خالد جميل شمّوط

بيروت، لبنان وموندريان





بيروت، لبنان وموندريان/ رواية
خالد جميل شموط/ مؤلف من فلسطين
الطبعة الأولى، 2018



المؤسسة العربيّة للدراسات والنشر
المركز الرئيسي:
المصيطبة - شارع ميشال أبي شهلا - متفرع من جسر سليم سلام
مفرق الجامعة اللبنانية الدولية LIU - بناية النجوم - مقابل أبراج بيروت
ص.ب.: 11/5460 الرمز البريدي 1107-2190
تلفاكس: 707892 1 00961 - 707891 1 00961
بيروت - لبنان
E-mail: mkpublishing@terra.net.lb
موقع الدار الألكترونيّ: www.airpbooks.com

التوزيع في الأردن :
دار الفارس للنشر والتوزيع
ص. ب.9157، عمّان، 11191 الأردنّ،
هاتف: 5605432 6 00962، هاتفاكس: 4631229 6 00962
E-mail : info@airpbooks.com

تصميم الغلاف: يوسف الصرايرة / الأردن
لوحة الغلاف: الفنان بيت موندريان / هولندا
الصفّ الضوئيّ: المؤسسة العربيّة للدراسات والنشر/ بيروت، لبنان
التنفيذ الطباعيّ : ديمو برس / بيروت، لبنان

الترقيم الدولي: ISBN: 978-614-419-899-5



خالد جميل شمّوط

بيروت، لبنان وموندريان



الإهداء

إلى الشرفاء من دافع ويدافع عن
كرامة لبنان . . . كل لبنان

-١-

تركني صديقي بشير الذي أتى إلى لبنان قبل يومين ، تركني لوحدي داخل قاعة العرض حتى يتابع هو أمور تحضير وترتيب المعرض قبل افتتاحه بعد يومين أو ثلاثة . أقف في إحدى مساحات القاعة الكبيرة التي قُسمت إلى مساحات صغيرة باستخدام قواطع جدارية بينها يرتفع كل منها ثلاثة أمتار . وقد خصصت كل من تلك المساحات الصغيرة لموضوع معين من اللوحات أو للوحات فنان معين . وها أنا أقف في إحدى هذه المساحات أستمتع بمشاهدة لوحة من أكثر اللوحات المفضلة لدي إن لم تكن أكثرها تفضيلاً . إنها لوحة موندريان المقسمة إلى مربعات ومستطيلات كل منها ملون بلون واحد إما أحمر ، أو أصفر أو أزرق أو أبيض ، وخطوط سوداء تحدد حدود كل مستطيل . هذه اللوحة التي أعشقها ، إنها أمامي ، اللوحة الأصلية أمامي على بعد سنتيمترات من يدي . هذه اللوحة التي أملك نسخة منها في مكتبي وأشاهدها كل يوم ، والتي توفر جماليتها علاجاً نفسياً لي وراحة بال ، هذه اللوحة أمامي . كم هو إحساس رائع ورهيب أن ترى شيئاً مشهوراً على مستوى العالم كله . . . تراه أمامك . أقف مبتسماً أراقب اللوحة وأدرس

تفاصيل مستطيلاتها وخطوطها السوداء ، وإذ فجأة ، شعرت بالقشعريرة تسري في بدني وبدأت الخطوط السوداء تتحرك وتتلوى ، وكأنها ثعبان أو ثعابين تقوم من سبات عميق طويل ، أو كأنها عصا موسى بدأت تتحرك بقدرة قادر . فتحت عينيّ على أشدهما ونظرت مرة أخرى فبدت اللوحة طبيعية . نظرت إلى مكان آخر فبدا كل شيء طبيعياً . أعدت النظر إلى لوحة موندريان مرة أخرى ، فكانت قد عادت إلى شكلها العادي ، فركت عينيّ حتى أتأكد فكانت كذلك ، إلا أنني لم أعد أرى فيها ما كنت أراه من جمالية والذي كان قد أحببني فيها . لقد بدت المستطيلات مقطعة مفصولة عن بعضها البعض ، وحتى المستطيلات البيضاء بينها لم تكن لتوحد اللوحة وتجعل من الأجزاء وحدة متكاملة ، بل بدت وكأن الألوان المختلفة تحتاج إلى اللون الأبيض المحايد بينها ليفصلها عن بعضها البعض ، بدل أن يوحدها في اللوحة ، بينما بدت الخطوط السوداء كثعابين فصلٍ بين المستطيلات ، ولتؤكد على عدم اندماج هذا اللون بذاك ، حتى يحافظ كل لون على شخصيته وتكوينه ، وكي لا يتأثر بالألوان الأخرى وتشوبه الشوائب منها . ولأول مرة منذ أن بدأت أعي فن موندريان ، بدت لي تلك اللوحة فاقدة للوحدة في تكوينها ، وأن انفصال الألوان لا يخدم اللوحة من هذه الناحية بل يجسد ويؤكد على تقسيمها وعدم اندماجها .

ما هذا الذي يحدث لي وللوحة؟ كيف حصل هذا؟ كيف تغيرت نظرتي لها؟ هذه اللوحة التي كانت مصدر راحة نفسية لي وكنت أنظر إليها يومياً لتخفيف حدة توتري من العمل أو أمور الحياة الأخرى ، كيف تغيرت؟ إنها نفسها هي التي في مكتبي منذ سنوات وسنوات بالألوان والخطوط والمستطيلات نفسها . هل حدث لعقلي خلل ما؟ أم أنني لم أعد أرى جيداً؟ لا أكاد أفقه شيئاً مما يحصل .

-٢-

أقود سيارتي متجهاً من منطقة المزرعة في بيروت إلى سن الفيل للقاء صديقي بشير الذي حضر من أمريكا مساء أمس . الشوق للقائه بعد هذا الغياب الطويل يقتلني ، ولكن صوت المذياع أو بالأحرى صوت مذيع الأخبار يقتلني أكثر ، وأكثر ما يقتلني في هذه اللحظة هو هذا الازدحام المروري المجنون . لم تكن الأخبار على مدى الأسابيع السابقة أو حتى الأشهر السابقة جيدة ، ولم تكن تبشر بأي تفاؤل ، وكأن التفاؤل والبشرى ليسا مِن حق لبنان ومَن في لبنان . لا يكاد البلد يتخطى مرحلة صعبة حتى يقع في التالية ، ولا يهم في أي اتجاه يذهب فالمطبات والشراك في كل مكان واتجاه . فهي إما حرب ، أو اشتباك مسلح أو اشتباك برلماني أو تعطيل للرئاسة والحكومة ، حتى أصبح البلد في مراحل عدة بلا رئيس أو حكومة أو جيش ، أو دونهم كلهم في الوقت نفسه . ولو توفر لعامة الشعب السفر والهجرة لأصبح البلد بلا شعب أيضاً . ولعل هذه فكرة معقولة إذ إنها قد تنهي كل هذه المشاكل السياسية والطائفية والمسلحة والمدنية . ولكن الشعب مسكين أو كما نقول بالعامية «مْعَتَّر» ليس بيده حيلة وإنما يخضع ، عن

قناعة أو عن وراثة أو حتى بالسليقة ، يخضع لقانون القطعان فيتبع كلٌ فصيلَه .

لا يكاد يلتحم جرح حتى يُعمل بآخر في الموضع نفسه أو في موضع آخر ، وأحياناً تُشحذ المشارط لعمليات أكبر واستئصالات فريق لفريق . ولكن الفرق الآن أن الفراغ السياسي الذي يسكن الحكومة حيث أن الكثير من المناصب الحكومية شاغرة ، إنما يهدد لبنان كله من شماله إلى جنوبه ، ومن شرقه إلى غربه كما يهدد كل مواطن من الأطياف كافة . وهذا أمر مختلف عن الاشتباكات أو الحروب التي كانت تحصل ، نعم كان هنالك دمار هائل ، ولكن أياً من هذه الحروب أو الاشتباكات لم تهدد في يوم من الأيام كل الوطن وكل مواطن ، بغض النظر عن جنسه أو عمره أو دينه أو طائفته أو مواطنته . ولكن الفراغ السياسي وما يتفتق عنه من فراغات اقتصادية وصحية وبيئية ووووو ، تهدد كل فرد على أرض الوطن . وأما ما هو ليس فراغاً أو ليس شاغراً من المناصب السياسية فإنه محتل ، نعم محتل ، من قبل شخصية غير مؤهلة لهذا المنصب ، أو مجرم سابق يداه ملطختان بدماء أبناء الشعب ، أو فاسد مسؤول عن كوارث عديدة من صنع يديه . ولماذا محتل؟ لأنه ابن فلان أو علان ، أو لأن الحزب الفلاني يريده والحزب يضغط . فيبقى التاريخ نفسه يعيد نفسه ، والأجندة نفسها تعاد وهي الأجندة نفسها التي توارثها هذا

المسؤول أباً عن جد . هموم الوطن الحالية لا تعني شيئاً لأي منهم ، لا شيء . ما يعنيهم هو تنفيذ أجندتهم والحصول على كل الحقوق لهم شخصياً ولفصيلهم ، ولو على حساب بقية الشعب وما تبقى من كرامة لهذا الوطن .

أخيراً بعد ربع ساعة ، وصوت المذيع المزعج ما انقطع لحظة ، قطعنا مئتي متر وقبل ذلك احتجنا إلى عشرين دقيقة من عند مسجد جمال عبد الناصر أي أكثر من نصف ساعة لنقطع نصف كيلومتر . أصبحت الآن عند الدوار الصغير أمام البربير ليطل علي أحد المباني التي نسيها الزمان وظلت واقفة شاهدة على بعض التاريخ بجراحها ، عفواً بخرومها التي تركتها الرصاصات والقذائف فأصبحت "مخردقة" . هذا المبنى هو شبه ميّت ، فمن الوهلة الأولى يبدو أنه مهجور تماماً ، ولكن ماذا يفعل صحن الأقمار الصناعية على السطح ، كما يبدو أن أحداً ما يقطن في حيز من المبنى ، فكل الشبابيك مفقودة والغرف مكشوفة وعارية إلا من شباك واحد مغلق بزجاج ، ويبدو أن هنالك ستائر عليه . كيف يستطيع أن يسكن مخلوق في مكان متهالك كهذا؟ لا أدري . ألا يعلم أنه إن خرّ هذا المبنى فسيخرّ معه قتيلاً!! ما العلاقة بين قاطن هذا المبنى والمبنى نفسه؟ لا شك أنه كعلاقة الابن بأمه أو أبيه ، أو ربما الأمل في أنه في يوم من الأيام سيعود المبنى إلى ما كان عليه وإلا ما بقي فيه . . . أنتبه فجأة إلى رائحة الفلافل التي

اجتاحتني من كل النواحي ، وقد انبعثت من مطعم فلافل الريس سعيد القابع أمام ذلك المبنى ، مما جعل لعابي يسيل ، وهي رائحة شهية من الصعب تجاهلها أو التحامل عليها ، فبدأت أحسب أنه قد يكون هنالك متسع من الوقت لأترك سيارتي وأقفز إلى المطعم وأشتري شطيرة ، وأعود قبل أن يكون السير قد تحرك قيد أنملة . وما إن هممت بتنفيذ تلك الخطة حتى تحركنا من جديد وأصبحنا على مسافة منه فضاعت الفرصة . . . وبعد توقف وتحرك متكرر أصبحنا بين نهاية سبق الخيل وتقاطع مبنى المتحف الوطني ، وعندها فقط غدا سبب الازدحام واضحاً . فهنالك مجموعة من مؤيدي التجمع الفلاني يفترشون الشارع احتجاجاً على أمر ما لم أتبين ما هو . . . وفي الحقيقة لا يهمني السبب ، يهمني أن أتحرك لأصل إلى فندق الهيلتون في سن الفيل للقاء صديقي . وفجأة هبطت عليّ فكرة لماذا يفترشون الأرض عند هذا التقاطع؟ لماذا يدنسون إحدى أطهر بقاع بيروت بل العالم العربي قاطبة بهكذا احتجاجات وافتراشات؟ لماذا عند المتحف وسباق الخيل؟ ألا يدركون قدر الملحمة البطولية التي سجلها المقاتلون الشرفاء عام ١٩٨٢ ضد أحد أعتى جيوش العالم وأكثرها إرهاباً؟ ألا يدرون ما كان لهذا المحور من دور جبار لكسر عنفوان الآلة الحربية الإسرائيلية وكسر أنفها وخشمها؟ لو كانوا يدرون لفرشوا الأرض وروداً بدل أن يفترشوها هم . ولكن الطامة

الكبرى أنني اكتشفت أن هنالك فريقاً آخراً من تجمع آخر يفترش الشارع المقابل ، احتجاجاً على الفريق الأول؟ ما هذا الهراء؟ ألهذا الحد وصلنا؟ ثم ماذا ، أسنسمع غداً أن هنالك فريقاً ثالثاً نزل إلى الشارع وأغلق المرور ، احتجاجاً على الفريقين لأنهم يسدون الطرق؟ ولا شك أنهم وقتئذ سيسمون أنفسهم بمجموعة تاريخ أو يوم كذا؟ أليست هذه هي الموضة في بلدنا هذا؟ كم من جماعة في هذا البلد اسمها هو رقم واسم شهر من أشهر السنة؟ فما شاء الله ، إذا اغتيلت شخصية قيادية ، تسمى أنصار تلك الشخصية نفسها بذلك التاريخ ، وعندما تتولد مجموعة من الطرف الآخر محتجة على هذه الجماعة تسمي نفسها بتاريخ آخر ، وعندما تحصل معركة لإلغاء طرف طرفاً آخراً يتسمون بتاريخ ، وعندما تقوم مجموعة من حزب بانقلاب تتسمى بتاريخ ، ولما يحصل انقلاب داخل انقلاب يُفقص التاريخ تاريخاً آخراً لتتسمى به ، وهكذا دواليك حتى أصبح التاريخ يتقاتل مع بعضه البعض . . . .فإن قرأت مقالاً في صحيفة فستقرأ أنه قام ٨ آب (أغسطس) بالتصدي لمحاولات ٦ حزيران (يونيو) بينما اشتبك ٧ تموز (يوليو) مع ٩ أيلول (سبتمبر) . . .أيعقل أن تشتبك أيام السنة مع بعضها؟ كيف؟ المشكلة أنه إن ثابرنا على هذه الوتيرة ، فما هي إلا بضع سنين وسنكون قد ختمنا أيام السنة كلها بحركات وتجمعات ، أي سيكون هنالك ٣٦٥ تجمعاً اسم كل منها هو يوم من السنة .

والكل يُجمع على أننا لسنا ببعيدين عن وجود ٣٦٥ تجمعاً الآن!! وماذا سيحصل إذا ما استمر عدد التجمعات بالازدياد؟ هل سيبدؤون باستخدام الأشهر الإسلامية (العربية) كمحرم وصفر ورمضان وشوال؟

إن التاريخ الغربي (جريجوريان) بدأ مع مولد سيّدنا عيسى ، والتأريخ الإسلامي بدأ مع هجرة الرسول من مكة إلى المدينة ، ولكن ما لا أفهمه هو ما الذي يولد من تواريخ تجمعاتنا وتياراتنا؟ هل سيصبح المعمول به أن تسميً كل جماعة نفسها بتاريخ مولد مؤسسها؟ ومن ثم يصبح الاحتفال بمولد المؤسس المُلهم بذلك التاريخ من كل سنة . . . وعندما يموت ذلك القائد ، هل سيتغيّر اسم التجمع كي يتطابق مع تاريخ مولد ابن المؤسس؟ لماذا ابن المؤسس؟؟ طبعاً سيكون ابن المؤسس! لأن ابن المؤسس وابن القائد هو دائماً وأبداً المؤهل الوحيد لحمل الراية بعد أبيه!! وهل هنالك أي مجال للشك؟؟ فهنا في لبنان حقيقتان لا تتغيران منذ أن وُجد لبنان ، وهما إرث القيادة والمذهبية . وإن شئت ، فيمكنك أن تضيف حقيقة أخرى وهي التسمّي بأسماء لماعة كأيام السنة .

أخيراً وصلت دوار العدلية وانفتحت الطريق ، فانعطفت يميناً على شارع إلياس الهراوي ، وغيّرت محطة المذياع إلى محطة تبث موسيقى هادئة علني أقلل من اضطرابي قبل الوصول للقائي مع صديقي .

-٣-

هذا الذي سألتقيه بعد قليل صديق قديم من أيام الدراسة في المدرسة والجامعة . هو صديق قديم ولكن بعد اليوم لا شك أنه سيصبح صديقاً جديداً . نعم ، القديم يصبح جديداً بعد فراق دام أكثر من ثلاثين سنة . كيف تغيرت أطباعه وعقليته وما اكتسب من خبرة في الغرب ، وتشربه لمهارات وأذواق شتى ، فكل ذلك لا شك أن يكون قد ترك أثراً على شخصيته ونظرته للأمور ، ولم يعد ذلك الشاب الذي عهدته قبل عقود . كان من الشباب اللطفاء الهادئين المحبين للقراءة والاستطلاع ؛ وإن لم يمنع كل ذلك من أن يكون لعوباً يحب المزاح والنكتة . حب المطالعة والاستطلاع والمزاح والمرح هو ما كان قد جمعنا ووطد علاقتنا أثناء الدراسة والمراهقة وحتى بعد اغترابه . يقولون إن زمالة السجن والجامعة تدوم مدى الحياة ، وقد صدق هذا المثل . الفارق الكبير بيننا كان توجهنا المهني ، فهو كان عاشقاً للفن التشكيلي بكل نواحيه ، فدرسه في الجامعة الأمريكية في بيروت ومن ثم سافر إلى أمريكا ليحصل على الدكتوراه في تاريخ الفن التشكيلي ، وليستقر ويعمل أستاذاً جامعياً هناك ، وكان في النهاية أن أقنع والديه وإخوته بالهجرة

إلى أمريكا أيضاً فانتقلت عائلته كلها هناك . أما أنا فقد كان توجهي دراسة الاقتصاد ومن ثم العمل في أحد المصارف في بيروت .

كنت أقترب من فندق الهيلتون في منطقة سن الفيل في بيروت ، حيث سألتقيه وما زلت أحاول رسم صورة له في مخيلتي . . . ولا أقصد بصورة معناها الحرفي ؛ إذ كنت أعرف شكله تماماً من خلال الصور التي نتبادلها أو من خلال محادثاتنا على الهاتف وتطبيقاته الذكية . . .ما عنيت هو كيف ستكون تصرفاته وحركاته وعقليته الكاملة خلاف ما كان يظهر منه خلال الدقائق المعدودات على الهاتف أو الإنترنت . . .الآن سيختلف الوضع ، حيث سنكون مع بعض لساعات وساعات يومياً وعلى مدى بضعة أيام ، فستتكشف لي شخصيته الحقيقية كما ستتكشف له شخصيتي الحقيقية أيضاً ، وهنا بدأت أفكر في الاتجاه الآخر ، فيا ترى كيف تبدلت شخصيتي أنا عما كنت عليه قبل أكثر من ثلاثين عاماً ، هل سيجد أي تغير بي ، وإن وَجَدَ فهل سيراه تغيّراً إيجابياً أم سلبياً؟ أحاول التخمين عن التطورات التي حصلت لي على مدى العقود الثلاثة ، ولكنني أفشل وأحاول ثانية وأفشل مما زادني توتراً ، فقررت عدم التفكير في هذا حتى ألتقيه بنفسي .

دخلت الساحة الخارجية للفندق وركنت سيارتي أمامه ، وبعدة خطوات كنت قد أصبحت داخل بهو الفندق . تأملت

البهو وكان خالياً إلا من موظفين اثنين خلف طاولة الاستقبال إلى اليسار ، وكان الموظفان يستمتعان بهدوء الصباح ، فتركتهما لحالهما واتجهت إلى المصعد ، وماهي إلا لحظات حتى وصل فدخلته وضغطت زر الطابق الثامن والعشرين حيث غرفة صديقي . تحرك المصعد واستدرت مواجهاً بيروت من خلال حائط المصعد الزجاجي ، ومن أمامه حائط الفندق الزجاجي أيضاً . ومع ارتفاع المصعد البطيء بدأت تصغر المباني والتفاصيل من أمامي بينما كانت تكبر المساحة الجغرافية التي أراها . هناك إلى يميني بدت كنيسة القديسة ريتا وبدا مبنى «إن ديزاين» وكأنه يهبط إلى الأسفل ، وثوان معدودات وتحدد طريق إميل لحود وبدأت معالم بيروت تتوضح رويداً رويداً ، هناك إلى أقصى اليسار طرف جبل من جبال لبنان المحيطة ببيروت ، وفي الوسط المدينة الرياضية ، ومقابلها على يميني برج المر الشامخ بطوله ، وفي الأفق بدأت تتراءى زرقة البحر المتوسط ، وفي لحظات كانت بيروت قد تحولت إلى منظر رائع من خضرة وجبال وبحر ومبان وتاريخ . بدت صغيرة بيروت من هذا الارتفاع ، صغيرة جداً ، صغيرة بحجم راحة اليد كما وصفها الشاعر أمجد ناصر .

استقبلني بشير بترحاب حار وتبادلنا العناق الطويل والقبل ، وكأنه لم يتطبع بعادات الغرب الباردة الطباع . شكله كما كنت متوقعاً شبيهاً بما كنت أراه منه من خلال تواصلنا على الإنترنت والهاتف ، وثلاثون عاماً وزوجة تجيد الطهي ،

كلها عوامل قوية لزيادة وزنه ، كما أن شعره كان قد أصبح خليطاً من الأسود والأبيض . وبعد دقيقة أو أكثر من التقبيل والعناق والتفرس بوجه الآخر كنا لا نزال نمسك بأذرع بعض ، ومن ثم تشابكت أصابع يدينا وسحبني إلى غرفة الجلوس المجاورة والملحقة بغرفة النوم .

جلسنا على أريكتيْن متقابلتين في غرفة الجلوس ، وكما هي العادة في تلك اللقاءات جلسنا نسترجع الماضي من قصصنا في المدرسة والجامعة وحكايات أترابنا وزملائنا ، وخاصة البنات منهم واللاتي كنا مغرمين بهن ، أو هكذا كنا نعتقد على أي حال . لم نترك صغيرة ولا كبيرة من أخبارنا وأخبار الأهل والأصدقاء إلا وتناولناها بكل تفاصيلها ، وكذلك الأمر بالنسبة لأعمالنا وأشغالنا ، حتى إننا لم نشعر بأن الساعة كانت قد شارفت على الحادية عشرة ونحن جالسيْن نسترجع الماضي .

ثم وقف بشير قائلاً وهو يسحبني من يدي :

– هيّا بنا يا فارس ، لنذهب إلى مكان آخر غير الفندق لنكمل الحديث ، فأنا لم أغادره منذ أن وصلته بعد ظهر أمس ، ولا اعتقد أنني أريد أن أقضي الأيام القادمة في الغرفة . أريد أن أرى بيروت ، أن أعيش بيروت ، أن أحيا بيروت ، وأن أعيد ذكرياتي كما عهدتها .

– ما رأيك بفنجان قهوة أولاً حتى نستطيع التركيز ومن ثم ننطلق؟

رحب بشير بالفكرة حتى قبل أن أكمل سؤالي ، فهو كان في حاجة ماسة لفنجان قهوة تركي على الأصول .

نزلنا من الفندق واتجهنا إلى «لِ مول» حيث هنالك عدة مقاه ، وإن كنت أفضل مقهى «لينا» ، فمقاعده مريحة وأنيقة وألوانه تضفي حيوية على المكان ، ولكن الأهم من ذلك أنه يقع في زاوية من الطابق بعيدة عن المصاعد والسلالم الكهربائية وزحمة الممرات ، فنستطيع أن ننعم بقسط من راحة البال والهدوء . دخلنا المول واتجهت إلى اليمين لنأخذ الدرج الكهربائي ، وبعد عدة ثوان لاحظت أنني أمشي وحيداً ولم يكن هنالك أثر لبشير . استدرت مرة ومرتين حتى وقعت عيناي عليه وهو واقف أمام مجسم لمشهد ميلاد السيد المسيح ، وهو مجسم كبير يبلغ طوله حوالي ستة أمتار وعرضه ثلاثة أمتار . والمجسم ليس فقط عبارة عن الكوخ الذي وُلد فيه السيد المسيح وأشكال شخصيات وبضعة حيوانات داجنة كالخرفان والماعز والبقر ، إنما هو مجسم لقرية كاملة ببيوت تتجاوز الثلاثين منها ، ملونة بمختلف الألوان ، بالإضافة إلى قصر كبير في وسطها ، كما أن العديد من الأشياء هي متحركة كالطاحونة والصياد الذي يصطاد بصنارته ، والبئر ذات الدلو المتحرك . والبيوت موزعة على مساحة المجسم وتتخللها طرق وتضاريس وأشجار ونباتات تضفي جواً حقيقياً على القرية . وفي وسط هذا يقبع كوخ فيه شخصيات ملونة تمثل السيدة مريم والسيد المسيح والملوك الثلاثة . كان بشير

واقفاً يراقبَ المجسم والابتسامة على وجهه ، وكأنه طفل صغير وفي الوقت نفسه كان يحاول أن يلتقط أكبر عدد من الصور بينما العمال يعملون على تفكيكه لإزالته .

- هذا رائع يا فارس ، مجسم رائع لم أرَ في حياتي أكبر منه أو بهذه التفاصيل الجميلة .

- بالفعل ، وهو مصدر استقطاب للناس ليأتوا إلى المول ، ولهذا هم يتركونه في مكانه حتى بداية الربيع .

هبطنا إلى الدور الأسفل واتجهنا إلى مقهى «لينا» المميز بألوان كراسيه الحمراء والزرقاء والصفراء . اخترنا زاوية منه وجلسنا ، وما هي إلا لحظات حتى جاءت نادلة صبية فقدمت لنا لائحة الطعام وانصرفت ، وعَيْنا بشير ما انفكتا تراقبان ساقيها وفخذيها اللتين لم تفلح التنورة الميني من حجب الكثير منهما ، وربما لم يكن المقصود الحجب بالدرجة الأولى ، وكذلك الأمر بالنسبة للبلوزة التي تلبسها وموقعها من صدرها وأكتافها . نكزته بلائحة الطعام معلقاً أنه لم يتغيّر من أيام الجامعة وبصبصته ، فردّ :

- يا رجل ، أيام الدراسة كانت التنانير ميني ولكن هذه ميني ، ميني ومن ثم ميني . وأضاف ضاحكاً : - يا ليت الشباب يعود يوماً!

أمسك بشير بلائحة الطعام وأخذ يقلبها بين يديه ويعاينها من فوق إلى تحت ، ومن ثم الوجه الآخر وكأنه يبحث عن ضالة . كان المسكين يبحث عن أي شيء باللغة العربية أو الإنكليزية ،

بينما لائحة الطعام كانت كلها بالفرنسية ، وحتى اللوحة الكبيرة على الجدار فوق المحاسب ، وحيث يحضرون القهوة والأكل لم تسعفه إذ كانت هي الأخرى بالفرنسية . بدا عليه الحرج إذ بدا وكأنه سمكة خارج الماء . وضع بشير اللائحة على الطاولة وقال :

- لنذهب إلى مقهى آخر .

ضحكت قائلاً :

- يا بشير ، أتعتقد أن المقاهي الأخرى هي أفضل حالاً؟ كلها كذلك .

- يعني أنا لم أفهم ما قالته لنا النادلة عندما أحضرت لائحتي الطعام إلا كلمة بونجور . وغير ذلك يفتح الله . ومن هذه اللائحة لم أفهم سوى أسماء القهوة . يعني الكلام هو بالفرنسية هنا في المنطقة الشرقية؟

بصراحة ، استوقفتني جملة «المنطقة الشرقية» ، فأنا لم اسمعها منذ دهر وكان لها صدى غريب وموقع من الفهم ضائع بالنسبة لي . غريب كان هذا الإحساس وفيه نوع من التناقض بداخلي . سبحان الله ، كنا فيما مضى نحيا ونعيش (أي والله بكل معنى الكلمة نحيا ونعيش) على كلمة الشرقية أو الغربية ، أما الآن فتبدو كلمة غريبة بعيدة .

- ماذا قلت يا بشير؟ المنطقة الشرقية؟

نظر إلي بارتياب وكأنه يحاول أن يستشف ما أعنيه ؛ إذ بدا سؤالي غريباً له وغير منطقي .

– مرت عقود يا بشير منذ آخر مرة استعملنا هذا التعبير .

– ماذا تعني ، أنكم لا تقولون المنطقة الشرقية والغربية؟

– هذه التعابير والتسميات ماتت مع القرن الماضي . بيروت واحدة ، لا شرقية ولا غربية ولا شمالية ولا جنوبية . بيروت وحدة واحدة . أنت لا تزال تعيش حالة الوضع عند اغترابك ، فلا شرقية ولا غربية ولا احتلال ولا ما لا يحزنون .

ومع انتهائي من جملتي تلك كانت النادلة قد وصلت طاولتنا وسألت عن طلباتنا ، وبطبيعة الحال لم يفهم بشير شيئاً مما قالته النادلة ، فاعتذرت بكلمة «بَردون» وأعادت السؤال مرة ثانية بالعربية . أخذ بشير يسأل عن هذا المشروب وذاك ، وكأنه يحاول أن يمّط الزمن أثناء وقوفها أمامه ليتسنى له أن يشبع من تفاصيلها ، وكأنه يرسم لوحة لها بذاكرته .

طلب كل منا ما يشتهيه من المشروبات الساخنة ، وعاودنا الحديث عن الماضي والحاضر والمستقبل . وما هي إلا دقائق حتى كانت مشروباتنا أمامنا على الطاولة .

– يا أخي أنا ذاهب لأحضر تلك الصحف التي هناك ، نفسي أقرأ صحيفة «زي الناس» . منذ الأمس ولا صحيفة في الفندق غير L'Orient Le Jour وLe Monde . ثم إنني أريد أن أرى مدى تغطية الإعلام للمعرض الذي أقيمه .

– ألم تكن هنالك نسخة من صحيفة النهار؟

– نعم ، ولكن يا أخي فارس يا حبيبي منذ متى ونحن

نقرأ النهار، صحيفة المنطقة الشرقية؟

قلت والابتسامة على شفتي:

- ها قد عدت إلى منطق الشرقية والغربية من جديد! يا رجل ما عادت كذلك.

- ربما، ولكنني أريد صحيفة من صحف زمان التي كنا نقرأها ونعصر أخبارها ومقالاتها عصراً.

- إيه، الله يرحم تلك الأيام يا عزيزي.

عاد بشير ولم يجد من الصحف إلا الفرنسية منها والنهار، فتابعنا الكلام، وسألته عن مهمته الفنية والمعرض الذي يُحضر له في بيروت والذي من أجله جاء، فوافق على أن يخبرني بكل تفاصيله على الغداء، فقد بدأ يشعر بالجوع وبصراحة كنت أنا أتضور من الجوع خاصة بعد محاولتي الفاشلة بالحصول على سندويتش فلافل، فوافقت من فوري ودفعنا فاتورة القهوة وانطلقنا إلى خارج المول، والذي كان قد بدأ يدب بالحياة والناس وخاصة النساء والبنات، فكان بشير ضائع التركيز وكأنه قد حضر لتوه من بلد محافظ بدلاً من أمريكا.

- يا أخي لا نزال في بداية الربيع والنساء نصف عاريات فكيف لبسهن في الصيف؟ وما يلبسن للسباحة والبحر أو كما يقولون «البلاج»؟ أليس كذلك؟

خرجت منا ضحكة تلقائية وغادرنا المول إلى الفندق لنسأل موظف الاستقبال عن مطاعم قريبة.

-٤-

سألنا موظف الاستقبال عن بعض المطاعم التي ينصح بها ، فأخذ يعدد بعضاً منها مثل Le Phenician وCaptain Davis وفرانسوا وبو ملحم وSiBon للتحلاية بعد الغداء ، كما ذكر عدة مطاعم في لِ مول ، وثم أردف مقترحاً مطعم الفندق حيث يقدمون أجود أنواع المازات والمأكولات العربية على أصولها على حد تعبيره . راق الاقتراح الأخير بشير كما راقني أكثر إذ إن ذلك يعني أننا نستطيع أن نأكل في الحال .

جلسنا متقابليْن على الطاولة في المطعم وطلبنا ما تيسر من الطيبات ، وبما أننا كنا جائعيْن فقد انتهى الامر بأن طلبنا أكثر مما نستطيع أن نأكل أضعافاً مضاعفة . وإنها دائماً في هكذا حالات عندما تتذكر ما كان يقوله لك والداك وأنت صغير بعدم التسوق وأنت جائع ، أو أن تكثر من الأطباق في المطعم لأن الجائع يشتهي كل شيء . ولكن يبقى ما يقولانه نظرياً فقط . وعندما يأتي الجوع ، ينسى العقل هذه التعليمات ، أو على الأقل يتناساها .

– هيّا ، أخبرني عن مهمتك التي جاءت بك إلى هنا بعد كل هذه السنين؟

- حسناً ، حسناً سأخبرك ولكن بشرط ، عندما يحضر الطعام ، عليك أن تترك لي متسعاً من الوقت لآكل لقمة أو لقمتين بين كل بضع جمل!

وافقت مبتسماً فأكمل :

- كما تعرف فإنني بالإضافة إلى عملي كأستاذ جامعي فإنني أيضاً عضو هيئة إدارية لإحدى المنظمات التي تهتم بالتعريف بالفن التشكيلي ، وبإقامة المعارض المختلفة من أجل تقريب الفن التشكيلي لكل الناس . فالمتاحف الفنية غير موجودة في كل مدينة من مدن أمريكا على سبيل المثال ، وحتى في المدن التي فيها متاحف عالمية كنيويورك أو لوس أنجلوس ، فإن شريحة كبيرة من سكان هذه المدن لا تذهب إلى المتاحف لأسباب عدة أهمها مشكلة الوصول ، والتكلفة لزيارة المتحف ، أو عدم الاهتمام ؛ لأنهم يفتقرون إلى المعرفة . فالمنظمة تهدف إلى إقامة معارض صغيرة في الأحياء البعيدة عن أماكن المتاحف الكبير ؛ة ليعرّفوا الناس على الفن وليولدوا لديهم حب الفن التشكيلي ، وطبعاً ليتيحوا لهم مشاهدة هذه الأعمال العريقة .

أكمل بشير شرحه لي ، وكان يبدو من خلال شرحه ولغته وحركاته كم هو مهتم بهذا الموضوع وبترويج الفن التشكيلي بين الناس ليبرز جمالية الألوان ، واللوحات ، والحقب التاريخية ، والأهم هو ليبرز تراث الدول والأمم وجمالياتها وحتى معاناتها أحياناً .

- يا عزيزي ، الفن هو بالفعل حلقة وصل بين أبناء الوطن الواحد والأمة الواحدة ولكن أيضاً بين الأمم . كيف نستطيع أن نفهم نفسية الإغريقيين مثلاً ومستوى تذوقهم للجمال والكمال لو لم يكن لدينا التماثيل التي نحتوها قبل ألفي عام؟ لو تركوا لنا ألف مجلد تفصل تفصيلاً أهمية الجمال والكمال لديهم وتذوقهم لهما ، لما استطعنا أن نستوعب ذلك كما نستوعبه من نظرة واحدة إلى تمثال فينوس في متحف اللوفر مثلاً . فبالرغم من فقدان التمثال لذراعي فينوس إلا أن كمالية التمثال من نحت وشكل ودقة ونسب وحتى أنوثة ، كلها تجعل من ذلك التمثال شيئاً أكثر من رائع وكامل . والمهم هنا هو أنه لو لم يكن اليونانيون ذواقي فن وجمال لما حرصوا على هذه الدقة والكمالية . وكذلك الأمر بالنسبة لحقبة الفن الانطباعي لاستيعاب حياة الباريسيين اليومية واهتماماتهم ، وكيف يقضون أوقات فراغهم أو ترفيههم . فالانطباعية كانت انسلاخاً عن الفن الكلاسيكي من حيث الأسلوب ، والأهم من ذلك هو الموضوع . فترى لوحات لمونيه ورينوار ومانيه وديغا وغيرهم موضوعها رجال في حانة ، أو في مقهى يحتسون القهوة ، أو على البحر أو في قارب في بحيرة إلى آخره من مواضيع لم يكن يجرؤ أن يتناولها فنان من العصور السابقة . فهذا بحد ذاته يفتح نافذة على تفاصيل حياتهم وألوانها واهتماماتهم . ولا تنسى لوحات الهولندي من القرن السادس عشر بيتر برويغل

والتي من خلال بعضها يصور بتفاصيل وألوان أكثر من رائعة الألعاب التي كان يلعب بها أولاد ذلك الزمن ، وهو يجسد عشرات من تلك الألعاب ، والتي ستدهشك إن رأيتها لأنك ستكتشف أننا نحن ، أي بعد ٤٠٠ عام ، لا نزال نلعب بعضاً من تلك الألعاب . شيء رائع يا صاح أن تكتشف تراث الآخرين وترتبط به وتشعر أنكم واحد .

– وماذا عن تاريخنا وتراثنا ومجازرنا؟ أين تقع من هذا كله؟

– نعم ، هنالك العديد من المعارض التي تقام كل عام في مدن أمريكية وغربية وغيرها ، والتي تنقل إلى هذه الشعوب تراث العرب وإنسانيتهم ومعاناتهم . ولكن تبقى هذه المعارض قليلة نسبياً لما يدور وما دار في الوطن العربي . ولعل أكثر العرب النشيطين في هذا المجال هم الفلسطينيون بسبب نكبتهم ، وفنانو المغرب العربي لحضورهم القوي في فرنسا وأوروبا ، ولما عانوه من الاستعمار . ولكن بشكل عام يبقى الحضور الفني العربي ضعيفاً .

– نعم ، نعم ، وعودة إلى كلامك عن المنظمة التي تشارك بها؟

– نعم ، فهذه المنظمة لها دعم من قطاع كبير من المهتمين بالفن في أمريكا وخارج أمريكا ، ونقيم معارض في مدن أمريكا وخارجها . وأحاول وبعض الأعضاء من أصول عربية أن

نركز على توعية الغرب بأمور العرب وتراثهم وتاريخهم ، وفي الوقت نفسه نحاول أن ننقل بعضاً من روائع الفن العالمي إلى الوطن العربي ، حتى نُعطي المواطن العربي فرصة لمشاهدتها ، والتي كان سيتعذر عليه الاستمتاع بها دون السفر إلى الخارج . فالمعرض الذي سنقيمه هنا في بيروت سيوفر تلك الفرصة لأبناء البلد ، وهذا ما أحضرني إلى بيروت . كما يوجد سبب آخر وهو يتعلق بكتاب أعمل على نشره ويتناول الفن الذي يولد من رحم الحروب والنكبات . ففي فترة الأسبوع التي سأقضيها هنا في بيروت ، سأحاول الحصول على أكبر قدر من المعلومات عن الويلات التي حلت ببلدنا هذا ، وعن الفن المنبثق من خلالها على مرّ العقود الخمسة الماضية .

- ولكن ما هو موضوع المعرض؟

- قل لي أولاً يا فارس ، كما تعلم فقد وصلت من أمريكا أمس ولم تتسنَّ لي زيارة مبنى المعرض ، ولا أدري في أي زاوية من زوايا بيروت يقع . كل ما أعرف أنه سيكون في مركز بيروت للمعارض . وعلي أن أكون هناك ابتداء من مساء غد حتى أُشرف على التحضيرات النهائية قبل الافتتاح بعد ثلاثة أيام . فكم يبعد عن الفندق؟

- إن كانت الطريق خالية من الازدحام ولا افتراشات على الطرق ، فلا تستغرق الطريق أكثر من ربع ساعة أو ثلث ساعة على أكثر تقدير .

- جيد ، جيد ، هذا مطمئن . أما عن موضوع المعرض ، فقد اخترت حقبتين اثنتين من الفن التشكيلي الغربي لهذا المعرض . فهنالك كما تعلم العشرات من الحقب الفنية ، كالرومنطيقية والنهضة والواقعية والتصويرية والانطباعية والتجريدية وغيرها ، مما لا يُعد ولا يحصى . وبدلاً من أن أجعل المعرض خليطاً من هذه الحقبات «فتضيع الطاسة» ، قررت أن أركز على حقبتين من الحقب المهمة ، والتي تظهر تناقضاً أو بالأحرى اختلافاً كبيراً بينهما من ناحية الموضوع والأسلوب . واللوحات التي ستعرض هي لفنانين من مرحلة ما بعد الانطباعية ، وبالأخص ما يُعرف بالتنقيطية أو (Pointillism) كأمثال سِرا (Seurat) وفنانيّ ما يُعرف بِـ«دي ستيل» (De Stijl) ، أو أيضاً نيوبلاستيسزم (Neoplasticism) كأمثال موندريان .

- أعشق موندريان ولوحاته التي هي عبارة عن مربعات ومستطيلات حمراء وصفراء وزرقاء تفصل بعضها عن بعض خطوط سوداء ومستطيلات بيضاء .

رد بشير والابتسامة على وجهه ، وفي اللحظة نفسها كان النادل قد بدأ بوضع الطعام على الطاولة :

- ما شاء الله عليك ، لا تزال تفهم بالفن وأهل الفن . هذا صحيح مئة بالمئة . وإن كنت من عشاق موندريان ، فأبشر ، فسترى بعضاً من لوحاته غداً عندما تصطحبني مساء إن لم يكن لديك ارتباط .

- ارتباط أو غير ارتباط ، سآتي معك لأرى لوحات موندريان . يبهرني كيف استطاع موندريان أن يستخدم الألوان البسيطة من أحمر وأصفر وأزرق والمستطيلات البيضاء أيضاً ليجعل منها لوحة متكاملة . كما تعجبني الخطوط السوداء التي تفصل بين كل مستطيل وآخر حيث تضفي جمالية خاصة على اللوحة وعلى تكوينها .

- و«الدي ستيل» ، على فكرة ، هي حركة تجريدية ضمت معماريين وفنانين تشكيليين ، ومنهاجها هو تجريد الأشكال إلى أبسطها ، كاستخدام المربعات والمستطيلات وتجريد الألوان إلى أبسطها ، أي إلى ألوانها الأساسية كالأحمر والأصفر والأزرق والأبيض والأسود . ومن أهم فناني هذه المرحلة هو موندريان ، وكما ذكرت لك ستكون لوحاته في المعرض بالإضافة إلى فنانين آخرين .

- ممتاز . وما ذكرته أنت الآن يفسر سبب استخدام موندريان في لوحات المربعات تلك الألوان الأساسية ، والآن أصبحت أدرك أهميتها . وحتى عرض أو سماكة الخطوط السوداء هي لا شك مقصودة ؛ إذ تخلق توازناً مقبولاً بين أجزاء اللوحة ، كما تلعب دور القاطع أو الفاصل بين هذه المربعات . فاصلٌ على عينيك أن تجتازه لتصل بين مربع وآخر أو بين لون وآخر وبالتالي تحافظ على شخصية كل لون لوحده .

- يبدو أنك بالفعل مغرم بموندريان فأنت تعرف الكثير عن لوحاته .

- صحيح ، صحيح ، ولدي لوحة من لوحاته . . .أقصد نسخة من إحدى لوحاته بالمستطيلات الملونة تلك في مكتبي . ولكن ماذا عن سِرا وفن التنقيطية؟ أينقطون اللوحة تنقيطاً؟

- ليس تماماً . إنما بدل أن يرسموا الأشياء بخطوط مستقيمة أو بأشكال مربعة أو دائرية أو مستطيلة ، إنما يشكّلون ما يرسمون بنقاط كثيرة كل نقطة هي لون أساسي . فعندما تنظر إلى اللوحة من مسافة تختلط هذه الألوان بنظرك ، فترى الأجسام والأشكال ملونة ومحددة بطريقة رائعة . فاللون الأخضر الذي تراه من مسافة ، إنما هو نتيجة نقاط صفراء وزرقاء ، واللون البرتقالي هو نتاج نقاط حمراء وصفراء .

- الآن فهمت ، فهي مثل شاشة التلفزيون أو الكمبيوتر ، أليس كذلك؟

- بالضبط . وهي بالرغم من جماليتها ، إلا أنها مُنهِكة ؛ إذ يمكنك أن تتخيل كم من عشرات آلاف النقاط على الفنان أن يرسمها في لوحة واحدة .

- هذا رائع جداً وأنا أتوق لمشاهدة هي اللوحات . وأريدك أن تعطيني جولة بنفسك وتشرح لي عن أهم اللوحات غداً إن شاء الله .

- طبعاً ، طبعاً ؛ لأنني بصراحة لا أعتقد أنه سيكون عندي الوقت بعد افتتاح المعرض ؛ إذ سأكون مشغولاً مع

العديد من الأفواج التي ستحضر وبالأخص من المدارس والجامعات . فبكل سرور .

ومع انتهاء بشير من جملته تلك ، كان النادل قد انتهى من وضع الطعام ، وبدأنا نأكل وكأننا لم نأكل منذ دهر . المقبلات الباردة من حمص ومتبل وسلطة زعتر التي كانت رائحة زعترها تجذبك جذباً ، والتبولة والفتوش والكبة النية ، والأطباق الرئيسية من المشاوي والكبة المقلية والسمك المشوي ، كانت كلها شهية ورائعة . فانهمكت أيدينا وأسناننا بالأكل والاستمتاع بالوليمة تلك . وكان كل ما أُعدّ لذيذاً بالفعل ، فأثنيت على الطعام وخاصة الكبة النيّة التي اعتقدت أن بشير لم يتذوقها منذ دهر ، ولكنه فاجأني بأن أجاب :

– صحيح أنني لا أتناولها إلا في المناسبات ، وهي عادة ما تكون متوسطة الجودة أو دونها ، ولكن بين الحين الآخر عندما أكون في زيارة لمدينة ديترويت ، أتوجه إلى إحدى الضواحي المحيطة بها واسمها «ديربورن» أو القرية العربية ، كما تُعرف بين العرب في أمريكا ، وآكل هناك كبة نيّة رائعة في مطعم الأمير . فهم لا يزالون يحضرونها وكأنك في بنت جبيل في لبنان .

– كبة نيّة على طريقة بنت جبيل في ديترويت؟

– يا عزيزي يا فارس ، ليس كبة نيّة فقط ، ولكن كل ما تشتهيه نفسك من أكل عربي موجود هناك . فهنالك عدة شوارع كلها محلات عربية ، أهمها شارعا «شِيْفِر» و«وُرِن» فيهما

ما هبّ ودبّ من محلات عربية ، من بقالة وعصيرات وعيادات وصيدليات ومطاعم وأفران ومكاتب محامين ومهندسين وغيرها . . . ويافطات المحلات كلها باللغة العربية ، ومعظم المارة والعابرين تسمعهم يتكلمون بالعربية ، وإن كانت اللكنة اللبنانية الجنوبية هي الطاغية ، يعني كأنك تمشي في لبنان .

- يا الله ، ومن أين جاء كل هؤلاء؟

- من هنا ، من لبنان ، حتى إنهم يقولون إن أكبر جالية لبنانية خارج لبنان هي في ديربورن . حضر جزء يسير منهم مع الحرب الأهلية إلى ديترويت وديربورن ، ومن ثم بدأوا يسحبون أقاربهم الواحد تلو الآخر حتى إنهم أفرغوا بنت جبيل تماماً ، وانتقلت بنت جبيل بأكملها إلى هناك . وهنالك جالية يمنية وأخرى عراقية ، ولكن هؤلاء تجدهم في القسم الجنوبي من ديربورن .

- ما شاء الله ، ما شاء الله .

- ولكن المشكلة يا أخي ، أن الجالية اللبنانية (على الأقل الجيل الأول ولحد ما الثاني) لا يزال يعيش في الماضي ولا يستطيع أن ينفصل عنه . أتدري ، نحن اللبنانيّون ، شعب يبقى متمسكاً بالتقاليد حتى البالية منها يبقى متمسكاً بها ولا يرى سبباً ليتحرر منها أو أن يطورها مع تطور الوقت والزمن والمكان والحال . نحن ناس نولد على تقليد ونموت عليه دون أن نحاول حتى أن نفكر بجدوى ذلك التقليد أو مدى فعاليته في ذلك الوقت .

- ماذا تقصد؟ لقد أضعتني! كنت تتكلم عن المطاعم والمحلات العربية والجالية في ديربورن وإذ أنت الآن تتكلم عن القيم والتقاليد والتجديد أو عدمه بالأحرى . وضّح يا أخي وضّح .

- وقعت بحب مدينة ديربورن من أول زيارة لي في ثمانينات القرن الماضي ؛ إذ كان كل شيء فيها يذكرني بلبنان قبل أن أغادره . كنت تدخل محل عصير الفاكهة فترى أن جدران المحل مكسوة بالبلاط السيراميك متوسط الحجم ، بألوانه البيضاء والخضراء ، تماماً كما كان في لبنان في الستينيات والسبعينيات من القرن الماضي ، وحتى أجهزة العصير هي نفسها ، وكذلك ترتيب الفاكهة ، فهي نفسها كما كنّا نألفها في لبنان قبل عشرين وثلاثين عاماً ، حيث ترى عشرات حبات البرتقال مرتبة فوق بعضها البعض داخل الفترينة أو على شكل هرم ، وكذلك حبات المانجا والتفاح وغيرها من الفاكهة . ومن ثم تدخل الفرن (كفرن الياسمين مثلاً) فترى العمال يمدون العجين المدور على ألواح خشبية (مفارش) ؛ ليتسنى لهم أن يغطوها بالزعتر والزيت أو باللحمة أو بالجبنة ، ومن ثم يحمل الفرّان العجين بمجروده الخشبي الكبير ليدخلها به إلى داخل الفرن . والمفارش تلك هي في مقاس وحجم ما كان عندنا في لبنان وآثار الدهر بادية عليها وترتيبها نفسه فوق بعضها . وكذلك الأمر لأمور عدة أخرى ، وكأن الزمن قد توقف فجأة في

ديربورن . أي أن الجيل الأول الذي أتى من لبنان كان قد حمل كل هذه الأشياء والتقاليد والعادات معه ومن ثم توقف عن التطور والتغيير . والأمور لم تتغير كثيراً حتى الآن ، فعندما كنت هناك العام الماضي كانت معظم هذه الأمور ما زالت كما هي . شيء غريب حقاً .

- حقاً إنها ظاهرة غريبة ، على علماء الاجتماع أن يدرسوا هذه الظاهرة .

ابتسم بشير وزادت ابتسامته اتساعاً قبل أن تتحول إلى ضحكة ثم قال :

- وهنالك شيء آخر طريف يتعلق ببيوت تلك الجالية في ديربورن .

- ها ، ما هو؟ لا تقل لي إنهم يعيشون في بيوت شعر ، أو إنهم يبنون بيوتهم على شكل خيام؟

ضحك بشير وقال :

- لا هذا ولا ذاك . نحن في العادة نقضي وقتنا في شوارع ديربورن الرئيسية للتبضع أو ريادة المطاعم ، ولا نتفرج على المنطقة حيث إنها ضاحية صغيرة وليست منطقة سياحية . ولكن في إحدى زياراتي إلى ديربورن ، قررت أن أتجول داخل الأحياء السكنية لأتعرف على المنطقة وأهلها ، وأنت كما تعلم فإنني قد تخصصت بالفن المعماري كمجال ثانوي أثناء دراستي للدكتوراه في الفن التشكيلي ، فأردت أن أتعرف على

بيوتهم وأحيائهم . فتمشيت في عدة شوارع سكنية ، وكل البيوت هي بيوت على الطريقة الأمريكية بشكلها وقرميدها وألوانها وموادها وحدائقها . فكما تشاهد في المسلسلات أو الأفلام الأمريكية ؛ فإن البيت الأمريكي التقليدي هو عبارة عن دورين يعلوهما قرميد على شكل خيمة أو هرم ، وفي الأمام عند باب البيت هنالك رواق (أو مساحة) صغيرة قد يكون عرضها متراً وطولها مترين أو ثلاثة ، وباب البيت يتوسطها . وحدود البيت الأمامية تكون عادة على مسافة ثمانية أو عشرة أمتار من الرصيف ، وهنالك حديقة كبيرة في الخلف ؛ إذ إن الأمريكيين يعتبرون الحديقة الخلفية هي مكان العائلة للعب والاسترخاء . وهكذا كانت بيوت العرب في ديربورن ، ولكن كان هنالك شيء ما غير طبيعي ، أو مألوف في هذه البيوت ولكنني لم أستطع أن أضع إصبعي عليه . وكلما خطوت وشاهدت بيتاً آخراً ازدادت قناعتي أن هنالك شيئاً خارج المألوف . كنت أتمشى وأرى العائلة مجتمعة أمام بيتها يحضرون الأكل للغداء وقد بدأ يتوافد أفراد العائلة ويجلسون على الكراسي ، وهنالك على الأقل جيلان أو ثلاثة أجيال مجتمعة ، وعند البيت التالي يتكرر المشهد والعائلة قد جلست وبدأت بالأكل والحديث ، وهم يتحدثون مع جيرانهم من الناحية الأخرى وهكذا . كان نصف سكان هذه الشوارع إما جالسين أو على وشك الجلوس لتناول الغداء ، وثم فجأة هبط

علي الوحي لأدرك مـا هو الخـارج عن المألوف في كل هذه البيوت .

سكت بشير برهة وكأنه يعطيني الفرصة لأخمن السبب . ولم تكن لدي أدنى فكرة عن السبب فأشرت له بيدي أن أكمل :

- أتدري هذا الرواق الصغير عند أول البيت من الخارج ، والذي عادة لا يتعدى عرضه متراً؟ لقد عرّضوه وكبّروه وجعلوه بمساحة غرفة! كل البيوت كانت كذلك ، هنالك امتداد خارج البيت ويرتفع عن الحديقة نصف متر تقريباً ليكون بمستوى المنزل وفيه طاولة كبيرة وكراسيّ ومظلة كبيرة ، حتى إن بعض البيوت كانت قد زرعت دالية عنب . وعلى هذا الرواق كانوا يتناولون غداءهم وربما وجباتهم الأخرى . هذا المنظر كان غريباً ، لأن المعتاد في أمريكا أن تجلس العائلة وتأكل وتتسامر في الحديقة التي هي خلف البيت وليس أمامه . أما الجالية اللبنانية في ديربورن فقد أبت أن تترك تقاليدها في لبنان ، فطوّعت بيوتها في أمريكا لتتماشى مع تلك التقاليد ، التقاليد التي من ضمنها أن صدارة البيت هي الأهم ، وهي المكان الذي يجب الجلوس فيه ليشاهدوا المارة من الجيران والمعارف ويدعونهم إلى شرب الشاي والترحاب بهم . نعم يا صديقي ، هذا ما لم أستطع أن أضع إصبعي عليه في البداية . وقد كان واضحاً أن البيوت عمرها فوق الثلاثين سنة ، بينما الأروقة لا

يتجاوز عمرها بضع سنين ، مما يدل على أنها وُسعت بعد أن اشترتها العائلات اللبنانية .

- والله هذا مثير جداً وظاهرة أخرى تستحق الدراسة .

- ألم أقل لك إننا شعب لا نستطيع التحول عن تقاليدنا وعما نرثه من عادات؟ إن التغيير أو التبديل من سابع المستحيلات لدينا .

وقبل أن أعلق ، كان النادل قد حضر بكاستي شاي ، وكانت تفوح منهما رائحة النعناع الأخضر الطازج ، التي تشدك إلى الشاي شداً حتى وإن لم تكن شريباً . ومع انتهائنا من الشاي كان التعب والنعاس باديين على بشير بسبب التخمة ، إضافة إلى سفره من أمريكا وفرق التوقيت ، فاقترحت عليه أن يعود إلى غرفته للراحة على أن نلتقي صباح يوم غد .

-٥-

بينما كان بشير وفارس يغادران المطعم ، كان نجيب جالساً في مقهاه المفضل يحتسي فنجاناً من القهوة التركي ، والتي تفوح منها رائحة الهيل بشكل يجعلك تريد أن تتروى بارتشافها حتى تستمتع بها أطول مدة ممكنة . كان جالساً مع صديق له يتجاذب معه حديثاً بسيطاً ، بينما يتصفح صحيفة اليوم بحثاً عن أي خبر يبشر بتطور أو انفراج بالأزمة السياسة الراهنة في لبنان . وكما في الأسابيع السابقة والأشهر الخالية لم يكن هنالك أي تباشير بذلك لا عن قريب ولا عن بعيد ، وما إن همّ بنقل أفكاره لصديقه حتى رنّ هاتفه فطوى الصحيفة بشكل سريع ، وبشيء من العصبية ألقى بها على الطاولة ، وتناول هاتفه ونظر إلى شاشته وقال لصاحبه أو ربما كان يكلم نفسه :

- خير ، هذه أختي ليلى ، ماذا تريد يا ترى؟

فتح هاتفه :

- ألو!

- ألو ، مرحباً نجيب ، كيف حالك؟

- نشكر الله بخير . ها ، خير إن شاء الله؟ ليس من عادتك الاتصال في هذا الوقت .

- لا خير ، ولا ما يحزنون . احزر من في لبنان؟

انقبض قلبه من سماع ذلك السؤال وإن لم يكن لديه أدنى فكرة عما تسأل أخته ، ولكن قلبه أو حاسته السادسة كانت تشعره بأنه مقدم على شيء خطير ، فتسارعت دقات قلبه وتحفزت حواسه .

- وما يدريني من في لبنان ، مع العلم أن كل المسؤولين الذين ذكرتهم الصحف أنهم في زيارة للبنان لا يهمني شيء من أمرهم . فليذهبوا في ستين داهية .

- لا ، يجب أن تحزر! كيف لا تحزر وأنت ونحن لم ننسه؟

- ليلى! بلا لفّ ودوران ، فلست رائق البال للحزازير .

ردّت ليلى بشكل قاطع وإن كانت تكسوه سخرية ما :

- أنسيت صاحبك بشير ، بشير حداد؟

وقع اسم بشير عليه وقع الصاعقة وانتفض من مكانه واقفاً وكأن ثعباناً لسعه ، وشعر بأن كل خلية من جسده ترتعش .

- ليلى ، لا داعي للمزاح ، هل أنت جادة؟ هل أنت جادة؟

- وهل تتوقعني أن أمزح بهكذا موضوع؟ نعم إن بشير هنا في لبنان .

أمسك بشاربه الكثيف وبدأ يلعب بطرفه ثم أردف :

- وكيف عرفت؟

- لقد حضر بشير للتحضير لمعرض فني في بيروت ، وقد قرأت الخبر الذي تحضره صحيفتنا لعدد الغد . كنّا في اجتماع

قبل قليل نناقش مقالات الغد عندما ذُكر الموضوع ، وقد انتهيت الآن من قراءة المسودة . ولا أدنى شك لدي في أنه البشير نفسه ، حيث تتطابق المعلومات بالنسبة لدراسته وعمله في أمريكا .

- متأكدة؟ أكيد؟

- لا أمزح يا نجيب ، المهم ، الآن ماذا ستفعل؟ هل تريده أن يدخل لبنان ويخرج منه سالماً؟

- وأين هو؟ أين ينزل؟

- لا أدري ولكن سأدبر أمري بالحصول على تلك المعلومات . ولكنك لم ترد عليّ ، هل ستدعه يدخل لبنان ويخرج منه سالماً؟

هزّ نجيب رأسه للحظات وهو محدق بأرض المقهى قبل أن ينهي المكالمة قائلاً :

- لا عليك ، اتركي الموضوع لي وأنا سأتدبر أمره . المهم أريد منك معرفة مكان إقامته ومكان المعرض ، وكل صغيرة وكبيرة عن زيارته هنا بأسرع وقت .

أغلق نجيب هاتفه وارتمى على كرسيه ، بينما نظرات صديقه تلاحقه وتتفرس بوجهه ، محاولة أن تكشف ما الذي ألمّ به . ومرّت لحظات لم يتبادلا خلالها أي كلمة ، كان واضحاً على نجيب خلالها التفكير العميق .

- أتصدق أن بشير هنا؟ هنا في لبنان؟

- ومَن هو بشير؟

- مَن هو بشير!! آخ يا صاحبي ، آخ . بشير حداد ، الذي غاب ثلاثين عاماً ثم عاد حتى انتقم منه .

سكت نجيب ولم ينبس خلالها بكلمة واحدة مع جليسه ، وعندما طال سكوت نجيب سأله مرة أخرى عمّن هو هذا البشير .

- قصة صاحبنا بشير ، قصة . قصة بدأت منذ أكثر من ثلاثين عاماً ولم تنته بعد . ولكن ستنتهي قريباً إن شاء الله وكما أشتهي أنا . ستنتهي كما أشتهي يا صاحبي . سلب مني شيئاً عزيزاً هذا البشير بل قل سلب مني شخصيْن عزيزيْن يا صاحبي ، نعم شخصيْن . . .وإن كان فقدان الأول قد أصاب مقتلاً لدي ، فإن فقدان الثاني كان أكبر من مقتل ، وأكبر من كارثة أو بالأمر الفادح . إنها خسارة في صميم الصميم ، في القلب والعقل والبدن يا صاحبي . أما ماذا سلب ، فتلك حكاية طويلة بطول العمر .

لم يعلق صديقه ، بل تركه على راحته ، فأكمل :

- كانت لنا ونحن أطفال صغار ، جارة من عمري اسمها غادة ، وكانت غادة بكل معنى الكلمة . طبعاً عندما كنا أطفالاً لم أكن أدرك جمالها أو حسنها ؛ بل كانت فتاة كأي فتاة صغيرة في الحي نلعب مع بعض ونركض مع بعض ونختصم مع بعض ، إضافة إلى ذلك ، كانت هنالك علاقة عائلية بيننا

وبينهم ، فكنا نتبادل الزيارات من حين لآخر ، وطبعاً في مواسم الأعياد وحتى أعياد ميلادنا . ومع الوقت ونموّنا وتدرجنا في السن بدأت العلاقة تتطور من مجرد أطفال أبرياء نلعب مع بعض إلى افتتان ، أو على الأقل من ناحيتي أنا . فقد بدأت أهتم بمنظري وبتسريحة شعري وملبسي ، منذ أن أصبحنا في الثانوي أو قبله بعام . وبدأت أعيرها كل انتباهي في المدرسة ، أما خارج المدرسة فقد أصبح الاختلاط محصوراً بسبب العادات كما تعلم ، ولكن أيضاً بسبب أنني كنت أقضي معظم وقتي مع الشباب المراهقين من عمري ، كما كانت هي مع صاحباتها . ولكن كان هنالك حبّ يا صاحبي ، نعم حبّ من كل قلبي . وكان هذا الحبّ يتطور مع كل يوم ويزداد إلى حبّ جديد أكبر ، حتى أصبح هاجسي . لم تصارحني هي بحبها لي ، ولذلك لا أقول إنها اعترفت بحبها ، ولكنك تعرف الفتيات وكيف يجعلونك تدري إن كنّ يردنك أم لا . ولم يكن لدي أدنى شك في أنها كانت تحبني وتريدني . فكم من الوقت أمضينا تحت الشجر في المدرسة وخارج المدرسة نتكلم ونضحك ونقهقه ، أو كم مشينا تائهيْن هائميْن بين الطبيعة أو بين شوارع بيروت وأصابع يدينا متشابكة . كم كعكة بالزعتر أو كوز ذرة أو حتى حبة لوز كانت شاهدة على حبنا هذا يا صاحبي؟ أكثر من أن تعد أو أن تحصى . كان هنالك حبّ يا صاحبي ، نعم كان هنالك حب من طرفيْن دون أدنى شك . لم

نتبادل طوال هذه المدة كلها أكثر من القُبل البريئة ، قُبل فقط ولكنها كانت ترجمة لشعورها وإحساسها نحوي ، ولذلك أقول لك يا صاحبي إنني كنت أدري أنها تحبني وتريدني . كانت رقيقة كل الرقة ، وجميلة بكل معنى الكلمة ، وأنوثتها أكثر من أن توصف . كانت كل شيء بالنسبة لي في آخر سنة في الثانوية . كنت أستيقظ على صورتها وأنام على صورتها وبين هذه الصورة وتلك كنت أقضي يومي معها في المدرسة . إيه ، يا صاحبي ، كانت كل شيء بالنسبة لي ، كل شيء .

سكت نجيب دقيقة أو بضع دقيقة ، ثم أكمل :

– ثم تخرّجنا من المدرسة والتحقنا بالجامعة ، التحقت هي بالجامعة الأمريكية في بيروت ، بينما التحقت أنا بكلية قريبة من منطقتنا ؛ إذ كانت تكلفة الجامعة الأمريكية أكثر من طاقتنا . ولكن ذلك لم يكن مشكلة لدي ، صحيح أنني لن أكون معها في حرم الجامعة حتى نقضي أوقات فراغنا مع بعض ، ولكن لا يهم ؛ لأنني كنت أنوي أن أتقدم لخطبتها حالما أنتهي من السنة الثانية ونقضي سنتين كخطيبيْن لا نلبث أن نتزوج فور تخرجنا من الجامعة . كانت الأمور بسيطة ، يا صاحبي ، والخطة بسيطة وجاهزة ، كلها سنتان وتكون لي رسمياً ومن ثم الزواج . جامعة هنا أو هناك ، لا يهم . . . فهي ما تزال جارتنا في الشارع نفسه وأراها وتراني يومياً . آخ يا صاحبي ، آخ . . . ولكن الأمور جرت على غير ما كنت

أشتهيه . آه كم تُغيّر الجامعةُ الأشخاصَ! لا تُغيّر تفكيرهم ومنطقهم وفهمهم فحسب ، بل تُغيّر كل شيء ، حتى القلوب والأحاسيس والمشاعر . . . تُغيّر كل شيء يا صاحبي ، كل شيء!!

توقف نجيب عن الكلام ، وإن لم يتوقف رأسه عن حركته من أعلى إلى أسفل ، وكأنه يراجع ذكريات العمر في مخيلته . بينما أرجع ظهره إلى الوراء وكأنه يحتاج لما يسند له ظهره . مرت لحظات ثم أكمل بالوتيرة نفسها ، وهو وإن لم يكن يتكلم بصوت عالٍ ولا هادئ إنما بين بين ، فقد كان صوته مكسواً بأسى وحرقة ونقمة ، أدار وجهه نحو جليسه ونظر في عينيه ومع تحريكةٍ برأسه قال :

– المهم ، ما هي إلا أشهر حتى شعرت أنّها تتهرّب مني ولا تريد أن تقضي أوقاتها معي . اعتقدت في البداية أن ذلك عائد إلى ضيق وقتها بسبب انشغالها بالدراسة الجامعية ولكن لا ، حتى عندما كان لديها وقت فراغ ونلتقي ، ما كنّا نلتقي إلا بعد إلحاح عنيد مني ، وكنت أشعر أنها ليست الغادة التي أعرفها منذ أن كنّا أطفالاً . . . شيء ما بدأ يتغيّر بها ، وكان لدي شعور أكيد أن أحاسيسها نحوي لم تعد كما كانت ، وتتذرع هي بأن ذلك قد يكون بسبب انشغالها بالدراسة أو بكذا ، وأنا كالأبله صدقتها في البداية ، وكيف لا أصدقها وهي دنياي وحياتي وروحي وهوائي؟ كيف؟ كنت لا أزال

كالغريق الذي يتعلق بقشة ، قشة للنجاة ، وأنا متعلق بسراب أمل على أن ذلك كله شيء عابر وغيمة عابرة ، ولن تلبث أن تعود الأمور إلى ما كانت عليه ، وسنة أو اثنتان ونكون قد ارتبطنا رسمياً ، وتكون لي لوحدي . . . إيه يا صاحبي ، كنت أبله ، وأحمقَ وأخرقَ . . . بل وأكثر من ذلك . . . . وجاء الصيف بعد نهاية العام الأول من الجامعة ، ويا ليته لم يأت ، كان أسوأ صيف في حياتي ، جاءت سحابة غطت سمائي ولم تنقشع حتى الآن . نعم لا تزال هذه السحابة تلاحقني حتى الآن . ولكني سأجعلها تنقشع في اليومَيْن التاليَيْن وستشرق شمسي مرة ثانية .

قال جملته الأخيرة وكأنه لم يكن يتكلم مع جليسه بل كان ينظر في الفراغ البعيد ، وكأنه يُحدّث نفسه . ولم يقاطعه صاحبه بل تركه يتكلم ويُفضفض ويُنفّس عن نفسه .

- إيه ، ذلك الصيف يا صاحبي ، ذلك الصيف! التقينا في أول أسبوع من العطلة الصيفية ، وكنت تواقاً لرؤياها ظاناً بأن الصيف سيُصفّي الأمور بيننا ؛ لأنه سيتيح لنا أن نقضي وقتاً طويلاً مع بعض . . . ولكن هيهات ، هيهات . . . أقللتها بسيارتي ذلك اليوم وذهبنا إلى مقهى يطل على البحر ، وجلست مقابلاً لها أستمتع بكل شيء في وجهها ويديها وعنقها وحتى حركاتها . ولكن ما إن ظننت أن الأمور تمشي كما أشتهي وأنني في طريقي لرتق العلاقة ، حتى ألقت

بقذيفتها علي ، بل قل إنها ألقت قنبلة ذرية علي . أتدري ما أول شيء نطق به فمها في تلك الجلسة؟ أتدري؟ أتدري؟ قالت إنها تريد أن نكون مجرد أصدقاء!!!

وبصوت مرتفع كرر جملته الأخيرة :

- قالت إنها تريد أن نكون مجرد أصدقاء؟ أصدقاء؟ ذبحتني ابنة الكلب بكلمتها تلك . . . وللحظات لم أعِ ما كان يدور حولي ، وسألتها وأنا أكذب أذنيّ عن السبب . . . . لا سبب! هكذا بكل بساطة قالت ، لا سبب!قتلتني ابنة الكلب ثم تقول لا سبب ، بل تريد أن نتريث قليلاً بعلاقتنا وألا نتسرع . آه يا صاحبي ، كان يوماً أسودَ بل قل أياماً سوداء . حاولت على مدى الأيام والأسابيع التالية أن أعيد العلاقة إلى ما كانت عليه ، وأن أحاول أن أعرف منها السبب علني أصلحه ، ولكن دون فائدة . . . وافترقنا ما تبقى من الصيف ، اللهم إلا عندما كنت أراها صدفة في حيّنا فتحييني بابتسامة اصطناعيّة . ولكني يا صاحبي لم أكن لأترك الأمور هكذا دون أن أعرف السبب الحقيقي . ففي آخر أيام الصيف اكتشفت أنها تلتقي مع شاب بين الحين والآخر ، فيذهبان إلى الكورنيش للتمشي أو إلى السينما أو إلى مقهى . وما إن بدأ العام الدراسي الجديد ، ومن خلال متابعتي لها ، عرفت أن ذلك الشاب هو السيد بشير ، وهو طالب معها في الجامعة الأمريكية . ألم أقل لك إن الجامعة تغيّر الأشخاص؟ ولكن

أقول لك إنني بعد فترة ومن خلال تحرياتي عن بشير ، ارتاح قلبي قليلاً وعاد الأمل إليّ بأن ما هذا كله إلا نزوة صبيانية من ناحية غادة ، وأنها في نهاية المطاف ستعود إليّ .

نظر صاحب نجيب إليه بعينيْن مستفسرتيْن عما يعنيه؟ فأكمل قائلاً :

- السيد بشير طلع من طائفة غير طائفتنا أنا وغادة! صحيح أنه من ديننا ، ولكن ليس من طائفتنا ، وأنت تدري أن ذلك سيجعل زواجهما ، لو كانا يفكران بذلك ، مستحيلاً . كان ذلك أعظم خبر حصلت عليه منذ ذلك اليوم اللعين في بداية الصيف . فأنا أعرف أهلها وأعرف تعلقها بالتقاليد والعادات وطقوس طائفتنا ، وكنت متأكداً أنها لن توافق على هكذا زواج . فلتستمتع معه بعض الوقت ولكن عندما تكتشف حقيقة واقعها وواقع أهلها وعائلتها فستعود إلى حبها الأول دون شك .

- حسناً ، وماذا حصل بعدها؟

- حصل ما لم يكن في الحسبان يا صاحبي! نعم ، حصل ما لم يكن في الحسبان! استمرت علاقتهما سنة وسنتيْن وزيادة ، وفي آخر سنة في الجامعة كانا قد اتفقا على كل شيء ، من خطوبة وزواج وذرية . ولكي تعبّر له عن حبها العميق والصادق والأبدي ، تحوّلت عن طائفتها واعتنقت طائفته ، وبذلك ذلّلا كل الحواجز والعقبات في طريق

زواجـهـمـا . أمـا أهلهـا ، فلم يأبهـوا بذلك بل لـم يعـتـرضـوا أو يستنكروا!! كنت أعتقد أنني أعرفهم بشكل دقيق ولكن . . . آه يا صـاحـبي ، آه . وأخـوها ابن الكـلب لـم يعـتـرض على أي من هذا ، بل كـان يدافع عنهـا أمـام أقـاربهم الـذين لـم يرقـهـم مـا صنعوا . وقف لـهـا سنداً ولـم يتيح لأي من أقاربها أن يتـفلسف . وصار لـهما ما شاءا ، وتزوجا! وتزوجا! وتزوجا يا صاحبي وانفطر قلبي وتمزق عقلي ووجداني وتفتّتت روحي . ذُبت يا صاحبي ، والله ذُبت ، ولكـن ليس للسبب الـذي تعتقده ، أي لـيس لأنها قررت قضاء حياتها مع بشير بدلاً مني ، ولكن ، وأُقسم ، لأنها بدّلت طائفـتـهـا . نعم هذا الموضـوع الذي حـرقني وذوبني يا صاحبي ، كيف تترك طائفتها من أجل شخص آخر؟ كيف؟

- طيب ، ولكن هذا الكلام كله كان قبل أكـثر من ثلاثين أو خمس وثلاثين سنة يا نجيب .

وما إن سمع نجيب ذاك الرد حتى تحرك في كرسيه بشكل عصبي وخبط يده على الطاولة وأردف قائلاً :

- مـاذا تقصد بأكـثر من ثلاثين سنة أو خمس وثلاثين قد مـرّت؟ ها! مـاذا تقـصـد؟ بلا ثلاثين سنة بلا زفت . هذه مسخرة ، لا يهمني يا أخي إن أحبتني أو كرهتني أو تزوجت ببشير أو بزفت ، لا! أما أن تغيّر طائفتها! فلا وأكثر من لا . لا تقل لي ثلاثين سنة ، هذا ليس بالأمر الهيّن .

- ولكنّها لـم تغيّر دينها يا أخي ، مجرد طائفتها!

- قال تغيّر طائفتها ، قال! هل التقاليد لعبة؟ هي بذلك تعدّت كل الحدود والخطوط الحمراء! وتعدّت على طقوسنا وعاداتنا . لا ، صاحبي ، لا . . . لم نتربَّ نحن على أن نأخذ عاداتنا وتقاليدنا بهذه السهولة والمسخرة . وإن لم يكن هنالك من رقيب عليها ، فأنا الرقيب والمحاسب . . . . كان عليها أن تدفع فاتورة انحرافها بتخليها عن طائفتنا ، كان عليّ أن أجعل أحداً ما يدفع هذه الفاتورة ، إما هي وإما بشير . ولكن آه يا صاحبي آه . . . أتدري من دفع هذه الفاتورة في النهاية وحرق قلبي وقلب العائلة؟ شقيقي الصغير هو من دفع . . .

رنّ هاتف نجيب ، فتوقف عن الكلام وخطف الهاتف خطفاً من على الطاولة وسأل بلهفة :

- ها ، هل حصلت على المعلومات؟

لم يكن عسيراً على ليلى أن تحصل على معلومات إقامة بشير ؛ إذ استغلت وظيفتها كصحافية فقامت بعدة اتصالات لجهات عدة استطاعت من خلالها أن تعرف متى وصل بشير وما هي مهمته ، وأين مكان المعرض ، وأن مكان إقامته في فندق الهيلتون في سن الفيل . كانت معلومات هامة بالنسبة لنجيب ولكنه كان يريد تفاصيل أكثر من ذلك ، فسألها عن رقم هاتفه وبرنامج وجوده في المعرض وموعد سفره إلى أمريكا . أكدت ليلى أنها لم تغفل عن هذه الأشياء وهي تعمل على الحصول عليها ، كما أضافت أن المقال الذي سيُنشر في اليوم

التالي يحمل صورة بشير ، ولكنها سترسل له فوراً صورة بشير على جواله حتى يتعرف على شكله .

حمل نجيب جواله ووقف ماداً يده ليصافح صديقه ، ومعتذراً على اضطراره للانطلاق فوراً ، إذ إن الوقت ليس في صالحه وعليه أن يغتنم كل دقيقة .

-٦-

في اليوم التالي ، كنت في الفندق عند بشير في حدود العاشرة صباحاً لننطلق في رحلة إعادة تعريف بشير ببيروت ، الذي لا بد أنه قد نسي بعضاً منها ، بينما البعض الآخر قد تغيّر على مر الزمن . كنت أدرك حبه للكنافة بالكعكة أيام الشباب ، وكنت متاكداً أنه لا يزال على غرامه ذلك ، ومن لا يحب الكنافة وخاصة بالكعكة؟ والذي يحبها مرة لن يتخلى عنها مدى الحياة . فقررت أن نذهب إلى محل SiBon في سن الفيل ، والذي لا يبعد عن فندقه سوى دقائق بالسيارة ، وكما قد ذكر لنا موظف الاستقبال في الفندق ، فإنه محل مختص بالحلويات ولديه كنافة رائعة . وبعد الكنافة سنحتسي فنجان قهوة في مقهى قريب قبل الانطلاق في رحلة إعادة استكشاف بيروت .

دخلت على بشير في غرفته ، وما ان انتهينا من السلام حتى قال لي بحرارة ، وإن كان يشوبها قليل من الانفعال :

- أتدري يا فارس ماذا اكتشفت هذا الصباح وأنا جالس على شرفة غرفتي؟

- لا ، ماذا؟

أكمل بأسى وانفعال وكأنه يسترجع تاريخاً في مخيلته :

- اكتشفت أنني على مرمى حجر من مخيم تل الزعتر ، أو ما كان مخيم تل الزعتر!

- نعم ، صحيح فهو لا يبعد سوى كيلومتر عن هنا .

سكت بشير وأخذ يهزّ رأسه هزّاً خفيفاً ، فوقفت وأشرت إلى مكان المخيم ، وكان من السهل تحديد موقعه من هذا الارتفاع ، وكان من ناحية شمال شرق في المنخفض الواقع بعد الشارع العام .

- ها هو مكان تل الزعتر ، هنالك . وهل كنت تعرف أحداً منه؟

- لا ، ولكن ألا تذكر ما كان لحصاره ومن ثم لسقوطه في صيف عام ١٩٧٦ بيد الانعزاليين ، والمجزرة التي تبعته من وقع على الشعبين اللبناني والفلسطيني؟

- طبعاً أذكر ، ومن لا يتذكر؟

- والله كان فاجعة ، حصار دام شهرين اشتركت فيه بعض الميليشيات المارونية ، مثل قوات الكتائب ونمور الأحرار إضافة إلى الجيش السوري الشقيق ، كما أن ضباطاً من الجيش الإسرائيلي كانوا موجودين هناك في آخر أسابيع الحصار ، وكانوا يديرون عمليات القصف والحصار . كم من المئات بل الآلاف قضوا هناك؟

- كان بالفعل حصاراً مجرماً قتل فيه المئات من النساء

والأطفال ، إما بسبب الجوع والعطش أو بسبب آلاف القذائف التي قُصف بها . أتدري أنه وبسبب المجاعة الرهيبة التي ضربت المخيم في آخر أيامه ، أن سكانه طلبوا فتوى تحلل أكل جثث موتاهم! والله إنه لشيء مشين أن يحصل شيء كهذا في أواخر القرن العشرين من تاريخ البشرية . والغريب يا أخي أن سكان تل الزعتر كانوا خليطاً من الفلسطينيين واللبنانيين . كان هنالك خمسة عشر ألف لبناني ، ولكن المليشيات المارونية لم تفرق بينهم ، ونكلوا باللبنانيين كما نكلوا بالفلسطينيين كونهم مسلمين .

- وحتى بعد أن تم الاتفاق على فك الحصار مقابل مغادرة أهاليه المخيم دون العودة إليه ، ارتكبت قوات الكتائب ونمور الأحرار مجزرة مقززة عند نقاط خروج أهاليه . أكثر من ألفيْ شاب وشابة وامرأة وطفل وعجوز إما قتلوا بدم بارد وبشكل عشوائي أثناء خروجهم أو أخذوا بشاحنات إلى مناطق مجهولة ولم يُعثر لهم على أثر حتى الآن .كنت قد قرأت عن علي سالم ، والذي كان من المسؤولين في المخيم ، وكيف أن الكتائب أخذوه وربطوا كل رجل بمؤخرة سيارة وانطلقت السيارتان باتجاهين متضادين ، وتم شلخه نصفين أمام مرأى الآخرين ، أو الشاب الصغير أحمد حميد الذي أطلقت إحدى نساء الميليشيات عليه النار ثم أجهزت عليه بتكسير جمجمته بمدقة من الخشب .

- يبدو أن ذاكرتك لا تزال قوية حتى تتذكر كل هذه

التفاصيل بعد مرور أربعين عاماً على الجزرة! ما شاء الله ، ما شاء الله .

خطوت نحو باب الغرفة مقترحاً الانطلاق لتناول الكنافة قبل زيارة بيروت . ورد بشير ونحن نتجه إلى المصعد :

- كما قلت ، كنت أقرأ عن موضوع تل الزعتر ، فهو من ضمن بحثي عن الفن الذي يولد من رحم الحرب أو النكبات . فبالنسبة لتل الزعتر ، هنالك العديد من الفنانين الفلسطينيين واللبنانيين الذين تناولوا مأساته .

- وما حصل في تل الزعتر شبيه بالجزرة التي اقترفتها المليشيات نفسها في حي الكرنتينا في بداية عام ١٩٧٦ ، وراح ضحيتها أكثر من ألف وخمسمئة من المساكين ، جلّهم من اللبنانيين ، إضافة إلى العديد من الفلسطينيين والعمال السوريين والمصريين .

- صحيح ، والكرنتينا كانت مقدمة لما كانوا سيرتكبونه في تل الزعتر . حتى إن أفراد المليشيات نكلوا بجثث قتلى الكرنتينا أبشع تنكيل . وقطعوا أعضاء الكثير منها وعلقوها على الشجر وأخذوا يرقصون حولها . ولكن قل لي ، ما الذي يجعل شخصاً ما أن يتصرف بهكذا وحشية؟ لا بد أن هنالك تعبيراً أو كلمة أخرى أكبر من وحشية . ما الذي يدفع بشخص ما أن يقتل وينكل بآخر بهذه الطريقة؟ ما الذي يخلق كل هذا الحقد والكراهية والإجرام؟

صمتّ ، إذ لم يكن لدي رد على سؤاله . وأطرقت أفكر بسؤاله هذا ، سؤال لم أفكر فيه منذ أمد بعيد . فما هو السبب؟ كانت أشرطة ذكريات العقود الماضية تمر بمخيلتي والواقع والمواقف والأحداث وأنا مطرق أفكر بهذا كله ، ثم قلت :

- ربما كان الجواب بسيطاً . ببساطة ، ما يخلق كل هذه الكراهية والحقد والإجرام والقتل هو الانقياد الأعمى وراء زعماء وقيادات وتجمعات ، دون التفكير الملي أو تقدير الأمور من منظور محايد . فيصبح عندك أفراد كالقطيع يتبعون أول فرد منها أو القائد حتى وإن كان يقودهم إلى الهاوية . ينشأ الفرد هنا في لبنان في بيئة معينة وبين جيران معينين ، ويذهب إلى مدرسة مما يرضاها والداه ، فما إن يشب حتى يكون قد تجرّع فكراً معيناً وأصبح لديه توجهات معينة متطابقة مع بيئته . والحمد لله ، فإن مجتمعاتنا وثقافتنا لا تسمح للفرد بأن يراجع مستقبلاً حساباته أو مواقفه وتوجهاته بطريقة موضوعية . هذا غير موجود عندنا لأنه كما يقول المثل : العلم في الصغر كالنقش في الحجر . وهذا الحال لا يُستثنى منه أحد ولا أية جماعة أو طائفة .

فخذ الطائفة المارونية على سبيل المثال ، فهي دائماً تطلب السيادة ولو على حساب الآخرين ، وهذا ما كان قد أكده الأب العويط في إحدى المرات ، بأن لهم حق في لبنان وخاصة جبل لبنان ولا أحد غيرهم . والسبب قد يكون مرتبطاً باعتزاز الموارنة

بأنهم تابعون لفرنسا وأنهم تحت الوصاية الفرنسية ، حتى أصبحت هذه الفكرة أو الاستعلاء من أهم تكوينات نفسية الفرد الماروني وتفكيره ، والأهم أن الزعيم الماروني يعتبر نفسه معصوماً بل ومحمياً من فرنسا ، وبالتالي فهم فوق الآخرين من أبناء بلدهم بل وحتى فوق مسيحيي الطوائف الأخرى ، كالروم الأرثودكس الذين يعتقد الموارنة أنهم ساعدوا الدروز ضدهم في حرب عام ١٨٦٠ ، وهذه كانت وبالاً على الطائفتين ، حيث كان القتلى بعشرات الألوف ودمرت مئات القرى من الطرفين .

اتفق بشير مع وجهة نظري عندما ذكرتها له ، وكان لديه تصور قريب وإن كان مفصلاً أكثر من خلال قراءته وبحثه في تاريخ حروب لبنان . وهو وإن اتفق مع ما كنت قد قلته عن الموارنة ، إلا أنه أضاف انه ليس كل الموارنة سواسية .

– أتفق معك ولكن حتى بين الموارنة فهنالك تفاوتات كبيرة بين أطيافهم المختلفة . فهنالك أطراف رفضت الخوض في كثير من المعارك والاشتباكات والمجازر ، بينما أطراف أخرى انتهكت كل الحرمات كما في تل الزعتر . وحتى على الصعيد السياسي فهنالك تيار الرئيس فرنجية (الجد) وهو الذي يُعتبر عروبياً ويدافع عن القضايا العربية بما فيها فلسطين ، ورسخ وجود لبنان في جامعة الدول العربية ، بينما في المقابل هنالك تيار الرئيس شمعون ومعه آل الجميل ، الذين يرون تكتلاتهما المارونية ومصالحهما هي الأهم ولو على حساب الوطن والشعب

والموارنة الآخرين . فالرئيس شمعون كان غربياً أكثر من كونه عروبياً ، وكان يحاول بأقصى جهده أن يسحب عضوية لبنان من جامعة الدول العربية ، ورفض أثناء رئاسته لبنان التوقيع على بيان الجامعة ، والذي يدين العدوان الثلاثي على مصر عام ١٩٥٦ بل وأيد حلف بغداد . والأنكى من ذلك أنه كان يرفض التحدث بالعربية بل كان يستخدم الفرنسية لكل أموره . وإن عدت بالتاريخ إلى الوراء ، أي إلى ثلاثينيات القرن الماضي ، لاكتشفت ، على حد تعبير لورا أيزنبرغ في كتابها «عدو عدوي» ، أنه كانت هنالك علاقات وطيدة بين بعض القيادات المارونية والصهيونية العالمية .

- والله ما سمعت بهذا من قبل! كيف؟

كنّا قد وصلنا مطعم SiBon وأخذنا أماكننا على طاولة ، وكان قد أصرّ بشير على أن يطلب كنافته قبل الرد على «الكيف» هذه ، لأنه يعلم أن النقاش سيطول ولا يريد أن يؤخّر تذوقه للكنافة أكثر من ذلك ؛ لأنه كما قال لم يعُد يحتمل الصبر أكثر من ذلك وإلا سينفجر . جاء النادل وطلب كل منّا كنافة بالكعكة وعندها أكمل بشير :

- تقول لورا إن بعض الموارنة الانتهازيين أمثال الأسقف أغناطيوس مبارك والبطريرك أنطوان عريضة والرئيس اللبناني إميل إده وغيرهم كألفرد نقاش ونجيب صفير وتوفيق عواد ، كانوا هؤلاء يجاهرون للحركة الصهيونية بأحقية اليهود في فلسطين ،

وكانوا يعقدون صداقات مع الكثير من قادتها . وهنالك الكثير من الرسائل المتبادلة بين تلك القيادات حتى إن إميل إده ، وبصفته رئيساً ، كان قد أرسل إلى عصبة الأمم رسالة يحثهم فيها على قيام وطن قومي يهودي في فلسطين . طبعاً كل ذلك حصل لأن هؤلاء الزعماء الموارنة كانوا يريدون في المقابل ، وطناً قومياً للموارنة في جبل لبنان . فكلها مصالح . وحتى بين الموارنة آنذاك ، فقد كانت هنالك خلافات بسبب المصالح . فخذ مثلاً آل الخوري والذين كان يقودهم المطران عبد الله الخوري ، كانوا معارضين لإميل إده ، ليس لأنهم أكثر وطنية بل لأنهم كانوا يرونه معتدلاً أكثر من اللازم مع الطوائف غير المارونية ، وحاولوا جهدهم لإسقاطه حتى يتسنى لآل خوري الوصول إلى السلطة .

- والله كلها مصالح حزبية وشخصية . شيء مشين والله .

- والأنكى أن إميل إده عندما كان رئيساً كان يعبر لأصدقائه الصهاينة عن كرهه واحتقاره للطوائف الأخرى وخاصة المسلمة منها . وهو رئيس!! أتصدق هذا الكلام؟ كيف يكون شخص رئيساً لبلد بأكمله ويتخذ مواقف طائفية بهذا الشكل؟ يخلق شقاقاً ويرسم خطوطاً وحدوداً بين أبناء البلد الواحد .

- وهل أنت متأكد من ذلك يا بشير؟

- طبعاً ، طبعاً . والأمور لا تنتهي هنا ، فعن حرب الجبل

تلك عام ١٨٦٠ ، يعتقد المرء أنهم تعلموا درساً لن تنساه الأجيال القادمة حتى يوم القيامة بعد مقتل عشرات الألوف من الطرفين . ولكن لا ، فما هي إلا بضعة أجيال أخرى وتُعاد الكرة مرة ثانية علم ١٩٨٣ ليذهب ضحيتها ألوف جديدة . ولكن هذه المرة تقع الحرب بين الحزب التقدمي الاشتراكي الذي يتزعمه وليد جنبلاط وبين الكتائب أو بالأحرى القوات اللبنانية ، والتي كان يقودها سمير جعجع . ولماذا؟ حتى يعزز وليد جنبلاط موقفه كالزعيم الروحي للدروز؟ أو ليجد لنفسه دوراً جديداً في لبنان ، أو ربما ليثبت للآخرين أنه وطني يحارب الكتائب والموارنة ، وهو الذي كان قد فقَدَ شرفه ومصداقيته العام الذي قبله عندما استقبل شارون في بيته أثناء الاجتياح الإسرائيلي . شارون الذي كان آتياً ليستحل لبنان ويعيث به خراباً ودماراً وتقتيلاً وإرهاباً . لم يطلق وليد جنبلاط رصاصة واحدة على الجيش الإسرائيلي عندما دخل منطقتهم الدرزية ، رصاصة واحدة لم يطلقها . . . . ولكنه استقبل شارون في بيته . فكأن وليد جنبلاط قد خطف الطائفة الدرزية وفصلها عن بقية الشعب اللبناني ؛ لينأى بها عن قتال العدو الحقيقي للبنان وكل اللبنانيين . كيف يفعل هكذا؟ معظم الدروز اللبنانيين ، إن لم يكن كلهم ، وطنيون ومستعدون أن يضحوا من أجل لبنان . ولكن جنبلاط تصرف بمفرده ، وأخذ قرار الخنوع بمفرده . ومن ثم جاء عام ١٩٨٣ ليجر الدروز في حرب

ضد إخوتهم من اللبنانيين وليتكبدوا خسائر بالآلاف .

- ولكن للمصداقية ، فإن القوات اللبنانية ، وخاصة قائدها سمير جعجع ، هو الذي رمى بموارنة الجبل في الجحيم ، هو المسؤول عن مأساتهم وما حل بهم . لماذا ينتقل جعجع بقواته إلى منطقة الشوف إلى عقر دار الدروز؟ لماذا؟ ألم يشعر هو ومن معه من الكتائب أن شوكتهم قد قويت مع الاحتلال الإسرائيلي ، وأنه قد آن الأوان لكي يشكلوا دولتهم المارونية من زغرتا حتى جزين؟ أليست هذه هي الخطة التي كان قد وضعها فؤاد البستاني ، كما جاء في كتاب «المسألة المارونية» ، والذي قد نسيت اسم كاتبه .

- يا أخي قد يكون ما ذكرته صحيحاً ، بأن جعجع والقوات اللبنانية الكتائبية كانت لها نوايا غير شريفة ، ولكن هذا لا يعطي الحق للحزب التقدمي الاشتراكي بزعامة وليد جنبلاط أن يقتل وينكل بآلاف السكان المسيحيين في الشوف ، الذين لا دخل لهم بجعجع والقوات اللبنانية ، ولا يحق له أن يجليهم عنها ويدمر ممتلكاتهم وكنائسهم . ألهذا الحد؟ فهو يساهم في تكريس الطائفية ورسم الخطوط والحدود .

- ولكن ما الجديد في ذلك؟ فتاريخ الحزب التقدمي الاشتراكي بزعامة وليد جنبلاط مليء بالتذبذبات . فهو كان صديق القوى اليسارية في السبعينات ، ثم عام ١٩٨٢ فتح أراضيه للجيش الإسرائيلي التي مر منها دون رصاصة تطلق

عليه حتى وصل شارون وجيشه مشارف بيروت ، وهو بذلك يكون شريكاً مع القوات اليمينية المتمثلة بالكتائب ، ولكن فيما بعد ينقلب على الكتائب عام ١٩٨٣ ويعود إلى خط القوى اليسارية ، ثم لا يلبث أن يتحالف مع حركة أمل الشيعية لضرب حركة (المرابطون) السنيّة في بيروت عام ١٩٨٥ ، ومن بعدها لضرب مخيمات الفلسطينيين في بيروت ، والذين كانوا هم وقائدهم ياسر عرفات من أعز الاصدقاء لوليد جنبلاط ولحزبه . ومن ثم يعود ليختلف مع الشيعة .

- صحيح ، لقد نسيت أنا موضوع تصفية المرابطين عام ١٩٨٥ وحرب المخيمات في بيروت . هذه حقبة مهمة وربما استطعت أن تزودني بتفاصيل تلك الأحداث بما أنك عايشتها .

- بكل تأكيد ، ولكن مبدئياً أنت تعلم أن المرابطين هي حركة ناصرية أسسها إبراهيم قليلات وهي حركة ناصرية قلباً وقالباً ، ويُعرف إبراهيم قليلات بأبي شاكر أيضاً ، والمنطقة التي تحتضن مركز قيادته ونفوذه الأكبر اسمها منطقة أبي شاكر تيمناً به ، وتمتد من كورنيش المزرعة عند مسجد جمال عبد الناصر وحتى الملعب البلدي في طريق الجديدة ، ونزولاً إلى جسر الكولا . وهم كانوا طبعاً جزءاً مهماً من القوى القومية اليسارية التي كانت بجانب القضية الفلسطينية وفي الدفاع عن عروبة لبنان وسنييّ بيروت .

- نعم ، نعم . . .كان لهم الدور الأكبر في معركة الفنادق

في بداية الحـــرب الأهليـــة ، وفي اســـتــــرداد تلك المنطقــة الاستراتيجية من سيطرة الكتائب . لم تكن معارك خفيفة أو بسيطة ، بل أذكر أنها امتدت لأسابيع من نهاية عام ١٩٧٥ وحتى بداية ١٩٧٦ تبدلت خلالها السيطرة على الفنادق عدة مرات ، إلى أن رمى المرابطون بكل قوتهم وشاركهم فئات من القوى اليسارية الأخرى . وكان للحفاظ على منطقة الفنادق وقع كبير على سير المعارك الأخرى وانحسار نفوذ الكتائب لاحقاً .

- المهم أنه في السبعينيات ، كان الحزب التقدمي الاشتراكي ، وحتى بعد اغتيال قائده كمال جنبلاط واستلام ابنه وليد القيادة ، كان الحزب في معسكر وصف المرابطون والقوى التقدمية اليسارية الأخرى ، وقاتلوا جنباً إلى جنب في الكثير من المعارك . ولكن عندما تبدلت المصالح ، وجاءت أوامر حافظ الأسد بالقضاء على أي قوى مؤيدة للصف الفلسطيني وياسر عرفات بالتحديد ، انقلب الحزب التقدمي الاشتراكي على رفاق سلاح الأمس ، وتحالف مع حركة أمل الشيعية لضرب المرابطون وتطهير بيروت من أي قوى سنيّة . فاتفق وليد جنبلاط ونبيه البري على ذلك ، ودارت معركة شرسة في منطقة كورنيش المزرعة وأبي شاكر وطريق الجديدة إلى أن تم لهم ما كانوا يريدونه . ومن ثم داروا على اللاجئين الفلسطينيين في صبرا ومخيمات بيروت وشاتيلا وبرج البراجنة ، وحاصروا

صبرا والمخيميْن شهراً كاملاً اضطر فيه سكانه إلى أكل القطط والكلاب، وكانت النتيجة مقتل أكثر من ثلاثة آلاف مدني وتدمير ٩٠٪ من المخيمات، بعد أن كان نبيه بري قد طلب من اللواء السادس في الجيش اللبناني أن يقصف المخيمات، وقام ميشيل عون بإمداد هذا اللواء والذي كله من الشيعة، أمدهم بكل ما يحتاجونه من مدفعية وقذائف. وبفعل الحشو التطرفي الذي كان قادة أمل يحشون به عناصرهم، فقد اقترف هؤلاء العناصر الكثير من الفظائع بحق السكان اللبنانيين والفلسطينيين في المخيمات وفي منطقة طريق الجديدة، حيث ذبحوا المدنيين ونكلوا بالجثث، كما جابوا شوارع المنطقة وهم يهتفون «لا اله إلا الله العرب أعداء الله».

- ألهذا الحد؟ ما هذا الإجرام وهذا الحقد؟ وكل هذا بسبب كلمة قالها قائدهم أو زعيمهم. يعني يرمون بأنفسهم من فوق جبل فقط لأن القائد المعظم قد نطق بجوهرة؟؟ وهؤلاء الزعماء والقادة، ألا يرون كم من الحقد يزرعون على كلا الجانبين؟ يزرعونه في صدور عناصرهم وأتباعهم الذين يتشربون كلامهم ويصدقونه، وفي الوقت نفسه يزرعون الحقد والغل في الطرف الآخر بسبب المعاناة والتنكيل اللذين يلقونه. يزرعون الفتن ويخلقون حواجز بين الناس بدلا من الحب والوئام.

- وما هي إلا بضع سنين حتى يتحارب الشيعة مع

بعضهم البعض ، فتقوم معارك شرسة بين أمل وحزب الله بين ١٩٨٧ و١٩٨٨ ، تصور أن يقوم أفراد من الطائفة نفسها بقتل بعضهم البعض . . . من الطائفة نفسها!! ومن أجل ماذا؟ من أجل أجندة حزب . ويذهب ضحية هذه الأجندة الشيعية آلاف من الطرفين في بيروت والجنوب ، وتُكسر شوكة أمل عسكرياً ويبسط حزب الله نفوذه على الضاحية في بيروت والمناطق الأخرى . ولاحقاً يتحارب الدروز والشيعة في الجبل . يعني ، «طاسة وضايعة» ، الكل يضرب بالكل والكل يقتل الآخر ، الغرباء يتقاتلون ، والحلفاء يتحاربون ، والإخوة يتقاتلون أيضاً . فماذا بقي؟

– والمشكلة أن كل هذا هو بسبب قرارات ومواقف خاطئة وفقط لمصالح شخصية ، وإن لم تكن شخصية فهي من أجل حزب أو تجمع أو قيادة . والشعب مثل القطيع الكل يسير وراء من ألّه من الزعماء .

– والسنّة ، على فكرة ، ليسوا بأفضل حال . فإن لم يقتتلوا داخلياً فيما بينهم إلا أنهم يتقاتلون سياسياً ويفرقون شملهم . فعلى سبيل المثال قام رفيق الحريري في آخر تسعينيات القرن الماضي بحملة شرسة ضد سياسيّي طرابلس من السنّة ، كآل الميقاتي وكرامي وغيرهم ممن احتلوا مناصب كبيرة في الحكومات اللبنانية المتعاقبة ، كانوا رؤساء حكومات ، أو نواباً أو وزراء . ولكن الحريري كان يريد أن يروّض ويطوّع طرابلس له

ولحزبه ، فقام بشراء الأصوات وبث الخلافات بين حلفاء الأمس كي تكون له السيطرة . ورمى بالفلوس رمياً حتى يسيطر على نتائج الانتخابات . واستطاع بذلك أن يلقي بنفوذه في طرابلس وأصبحت محسوبة عليه . ولكننا ها نحن هنا مرة أخرى إذ يعيد التاريخ نفسه ولكن بالعكس . فقد بدأ الشارع الطرابلسي وقياداته المحلية بالتململ من سعد الحريري ، وكان هنالك أكثر من محاولة «انقلاب» على سعد الحريري وتقليص نفوذه .

- إيه ، ماذا عسانا أن نقول؟ ولا تنسَ حروب الطوائف المسيحية بين بعضها البعض أيضاً! ألم يحاول حزب الكتائب المسيحي المنتمي للطائفة المارونية القضاء على أخوانه المسيحيين من الطائفة الكاثوليك والطائفة الأرثوذكسية الشرقية؟ أليسوا من الديانة نفسها وإن اختلفت طوائفهم؟ نكّل بهم الكتائب شر تنكيل حتى إن عشرات الألوف منهم لجأوا إلى المنطقة الغربية ليكونوا في أمان بين المسلمين والدروز بدلاً من مناطق الكتائب .

سكتنا لبرهة وكأننا تعبنا من الكلام أو ربما تعبنا من التفكير في هذه الأمور التي لا تجيء إلا ومعها صداع الرأس والقرحة وحرقة القلب . وقلت :

- ما قلته قبل قليل يا بشير صحيح والله ، كل مشاكل هذا البلد وبلاويه إنما نتاج مصالح شخصية أو عصبة أفراد يريدون

حب التسلط والهيمنة ، حتى ولو كان ذلك على ظهور الآخرين من أبناء جلدتهم أو غير أبناء جلدتهم . هذا هوس وجنون التجبر والفرعنة يا أخي . وكما قلت أنت ، إنهم يخلقون حزازيات وكراهية بين الناس ، ويشقون الصفوف ويضعون الخطوط والحواجز بين أبناء الوطن .

- ولكن ما الفائدة يا فارس ، نحن نتكلم وغيرنا تكلم ولا يزال يتكلم ، وحتى عندنا في أمريكا نتكلم بهذا ، بينما تلك الزعامات لا تزال في مناصبها ودورها لم يتغيّر ، ويمارسون الخداع والتسلط والفساد والسرقة .

- آه يا أخي ، سينفجر رأسي ، ولا أدري أسينفجر من هذا الكلام كله أم لأنني أريد فنجان قهوة أستمخ عليه ، خاصة بعد هذه الكنافة الرائعة .

- والله معك حق فإنها بالفعل كنافة رائعة . هيا بنا ، أعرف مقهى رائعاً يُقدم ما تشتهيه من قهوة ، والأهم أنه هادئ وراق ولا ضجيج به وإن كان على مسافة بعيدة قليلاً من هنا ، وجلسته في الهواء الطلق ولا أروع من ذلك لا سيما المناظر الطبيعية هناك .

- يا الله ، هيا بنا إذاً .

انطلقنا بسيارتي وكانت الطريق شبه خالية ، مما جعل القيادة ممتعة والحديث ممتعاً أيضاً . وكان بشير يُعلق على كل ما يراه إما بأنه يتذكر هذا أو ذاك أو أنه لا يتذكر ذلك ، أو أنه

يستغرب من وجود هكذا محل هنا أو هناك ، ولكن أكثر ما كان يُعلق عليه هو صور بشير الجميّل هنا وهناك ، وعلم الكتائب على هذا المبنى أو ذاك ، وأحياناً وباستحياء يظهر علم نمور الأحرار . إلا أنه بشكل عام كان بشير مستمتعاً بالجولة بالسيارة . وعند التقاطع التالي الرئيسي حيث في إحدى زواياه تمثال للسيدة العذراء تبدو وكأنها تحرس التقاطع ، انحرفنا يميناً لنسلك طريقاً أقرب إلى البحر . وما هي إلا دقائق معدودات حتى وصلنا وجهتنا .

- ياه ، ما شاء الله على هذه المناظر ، إنها حقاً كما قالت فيروز لبنان قطعة من الجنة على الأرض .

- ألم أقل لك إن المناظر رائعة هنا .

- صحيح ، والحق أنني منذ أن علمت بأنني سأحضر إلى لبنان ، كنت أحلم بأن أجلس هكذا جلسة ، حيث بيروت على مرأى مني ، وسفوح الجبال الخضراء على مرمى النظر ، والبحر بصفائه ممتد إلى ما لا نهاية . يا أخي حتى طعم الهواء رائع .

ضحكت على بشير وهو يفتح فمه محاولاً أن يقضم الهواء ليطعمه . دخلنا المقهى واخترنا طاولة خارجية لنستمتع بالمنظر ، وحاول بشير جاهداً أن يطلب طلبه بنفسه ، مستخدماً ما تمكن من كلمات فرنسية مخلوطة بإنكليزية .

- على فكرة ، لاحظت في بداية الطريق إلى هنا ، وجود العشرات من صور بشير الجميّل وأبيه بيير ، وصور سمير جعجع

وصور كميل شمعون وأعلام الكتائب والأحرار مرشومة على المباني والأعمدة ، ولكني لم أر صوراً لزعامات مارونية أخرى وخاصة مثل فرنجية .

كانت ملاحظة بشير في محلها وكان محقاً فيما قاله .

- وهل نسيت ما تكلمنا به عن العلاقة بين الكتائب وآل فرنجية؟ حتى إنها وصلت إلى اغتيال الكتائب طوني فرنجية عام ١٩٧٨؟

- ولكن هل لا يزال هذا العداء حتى الآن؟

- يا بشير ، وهل تتغير الأمور هنا بسرعة؟ هذه الخطوط بين ما يعتبرونه «نحن وأنتم» ، وطالما هذه العقلية موجودة ، فلن يتم التغيير ، لأنه عندما يتكلم الزعماء ، أو يأمرون ، فالكل يسمع ويطيع وينفذ . وهذا ما حدث بالنسبة لطوني فرنجية .

لم يكن اغتيال طوني فرنجية في شهر حزيران (يونيو) ١٩٧٨ في بلدته إهدن عملاً بسيطاً أو حادثاً عابراً ، أو حتى مؤامرة داخلية بين الموارنة لتصفية حسابات أو لتسلط حزب على آخر . لا ، كان أكثر من ذلك بكثير ، له أبعاد مارونية ، ولبنانية ، وعربية وإقليمية . نعم ، اغتيال شخص واحد ، له كل هذه الأبعاد . صحيح أن طوني فرنجية لم يكن الشخصية العالمية أو حتى الإقليمية ليكون له كل هذا الوزن . . .هذا صحيح في الوقت الذي قُتل فيه ، ولكنه كان سيكون كذلك في بضع سنين لو كُتبت له الحياة . فموقف آل فرنجية بمن فيهم

طوني فرنجية كان معروفاً ، وهو مع الصف العربي والقضية الفلسطينية ووحدة لبنان . في المقابل ، هنالك تيار آخر من الموارنة من يدعو إلى إلحاق لبنان بالغرب وفصله عن الأمة العربية ، بل ويسعون بكل الوسائل لتقسيم لبنان حتى يتسنى لهم إقامة دولة مارونية في جبل لبنان . وفي النهاية ، فإن تقسيم لبنان يصب في مصلحة إسرائيل واستراتيجيتها بعيدة المدى ، حتى تستطيع أن تتحكم بالمنطقة كلها من خلال إقامة علاقات مصالح مع هذه الدويلات الصغيرة التي لن يكون لها لا حول ولا قوة إلا بدعم إسرائيل لها . فإذاً ، تقسيم لبنان هو شيء كانت ولا تزال تسعى إليه إسرائيل .

من المعروف أن آل الجميّل وحلفاءهم أمثال كميل شمعون كانوا من المنادين بل والذين يعملون على تقسيم لبنان ، كما كانت لهم علاقات شبه علنية مع إسرائيل . وهذه العلاقات كانت على كل المستويات من تدريب ، وتسليح ، واستخبارات ، ولوجستي ، كما كانت الزيارات لا تنقطع بين الطرفين . وكانت إسرائيل تهيء بشير الجميّل لرئاسة لبنان ، وهو حبيبهم وربيبهم ، والذي سيكون أداة طيّعة بيدهم لتمرير ما يريدون تمريره في المنطقة . ولكن إن كان بشير نجماً في لبنان عام ١٩٧٦ و١٩٧٧ ، فإن طوني فرنجية كان شمساً ، وكان بكل المعايير وبكل الآراء هو المرشح الأقوى لرئاسة لبنان ، ولا فرصة لبشير أمام طوني . وكان طوني قد أعلنها في العديد من

المناسبات أنه ضد التقسيم وضد تدويل المشكلة اللبنانية ؛ لأن التدويل ، والذي كان الآخرون ينادون به ، سيؤدي إلى التقسيم ، وكان طوني دائماً يؤكد أن وحدة لبنان فوق أي شيء ، وأن انتماءه هو عربي . . .هكذا علناً وبكل وضوح . وعندما لعب طوني فرنجية دوراً محورياً بإنجاح المصالحة الشمالية بين الرئيس سليمان فرنجية ورشيد كرامي ، كان قد تعدى كل الخطوط الحمراء الإسرائيلية ؛ لأنه بذلك كان يذلل الخطوط والحواجز والفواصل بين أطياف الشعب ، ويحاول أن يزيلها بدل أن يرسخ الفصل والتقسيم . وهذه المصالحة الشمالية أخرجت الآخرين أمثال الكتائب والأحرار عن صوابهم . فكان لا بد من التخلص من طوني الذي يسعى إلى الوحدة ، والذي سيبدد آمال بشير الجميّل بالرئاسة . فجاء أمر اغتياله من إسرائيل ، والتي هي أيضاً من رشحت سمير جعجع أن يكون قائد فرقة الموت تلك . لهذا قُتل طوني فرنجية يا بشير . فلذلك لا فرنجية هنا في هذه المنطقة .

- المشكلة أن طوني لم يُقتل لوحده ، بل أذكر تماماً ، بالرغم من أننا كنا لا نزال في المدرسة وقت هذه الحادثة ، أذكر أن ثلاثين شخصاً قُتلوا ليلتها ، بمن فيهم زوجته وابنته ذات العامين أو الثلاثة . كيف يرضى هؤلاء العناصر القيام بهكذا عمل غير أخلاقي .

- إيه يا بشير ، الكل يطيع الزعيم دون سؤال . الانقياد

الأعمى وراء زعماء وقيادات دون التفكير الملي أو تقدير الأمور فيصبح عندك عناصر عمي لا يبصرون إلا ما يريهم زعماؤهم . وإن كانت الكتائب قتلت غريماً لهم في إهدن فإنها لاحقاً قتلت ابن حليفهم داني شمعون وبالطريقة نفسها ، يعني لا حُرمات ، ليس المهم المبادئ ، إنما الزعامة والتسلط . وعامة الناس لا يريدون أن يروا الشمس من خلال الغربال .

جاءت النادلة ووضعت طلباتنا على الطاولة ، وكانت فرصة أن قطعت عنّا موضوعنا ، وأخذ كل واحد منّا يراقب المنظر الخلاب الذي أمامنا ، ونعلّق على جمال لبنان وحظ اللبنانيين في هذه القطعة من الجنة . جلسنا ما يقارب نصف ساعة أمضينا القليل منها بالكلام في مواضيع مختلفة ومتفرقة ، وبقية الوقت قضيناه تأملاً بالمناظر . ثم تنهد بشير وكأنه يريد أن يملأ رئتيه وصدره بالهواء النقي ، ثم قال مبتسماً :

- يالله يا أخي ، نادي على النادلة الأمّورة تلك كي ندفع الحساب وأُمرّن فرنسيتي المهترءة . والله لقد تكلمت بالفرنسية في اليوم والنصف الفائتين أكثر مما تكلمت بها في الثلاثين السنة الماضية .

- حسناً ، حسناً وأنا كلي شوق لكي نعيد ذكرياتنا مع بعض ، فهيّا!

- وأنا أيضاً ولا تدري كم فرحتي بذلك ، ولكن كما كنت قد ذكرت لك من قبل ، علينا أن نمّر على الفندق أولاً حتى

أتأكد من وصول طرد فيه مواد إعلامية مهمة للمعرض ، وأكدت الرسالة الإلكترونية التي استلمتها قبل قليل أن الطرد في طريقه إلى الفندق الآن ، ومن المفترض أن يكون قد وصل قبل دقائق .

دفعنا الحساب وخرجنا إلى سيارتي لننطلق في رحلة إعادة التعرف على بيروت .

-٧-

بينما كان بشير وفارس يستمتعان بكنافتهما ، كان نجيب يقوم باتصالات مهمة من طرفه ، ويحضر للانقضاض على فريسته . بناء على المعلومات وصور بشير التي استلمها من أخته ليلى قام نجيب بالاتصال بأبن أخيه في الصباح الباكر ؛ ليوكله بمهمة ملاحقة بشير ومعرفة أماكن تواجده على مدار الساعة . لم يكن ذلك عملاً هيّناً خاصة في مدينة كبيرة ومكتظة بالسكان كبيروت ، وكان يُدرك هو ذلك الأمر وشبه استحالته ، ولكنه كان مصمماً على أن يلاحق بشير على مدار الساعة حتى يتيح لنفسه وضع خطة للقضاء عليه .

تكلم نجيب مع ابن أخيه طارق الذي كان طفلاً صغيراً عندما تيتّم ، وشرح له ما يريده منه ، وعند سماع ذلك ، تحمس طارق لهذا الأمر بشكل جنوني قائلاً :

– عميّ ، اترك هذا الأمر لي ، فأنا أحلم طوال عمري أن أقوم بالانتقام لمقتل أبي! ما إن يخطو هذا البشير خطوة واحدة داخل فندقه حتى أكون أنا قد أجهزت عليه . اترك الأمر لي .....

ولكن وقبل أن ينهي كلامه ، قاطعه عمّه بنبرة قوية وبانفعال شديد :

- أمجنون أنت؟ أمجنون؟؟ يبدو أنني أخطأت التقدير بك وظننت أنك أعقل من ذلك! تريد أن تكشفنا لتنقلب القضية علينا؟؟

- ولكن يا عمّي . . .

- اسمع يا طارق ، بلا عمّي بلا زفت . والله ، سأُشرك شخصاً آخر إن لم تلتزم أنت بحذافير ما أطلبه منك! فهمت؟ هذه ليست لعبة ، ولا مجال للتهور . فهمت؟

- حاضر ، حاضر يا عمّي .

- كل ما أريده منك أن تجد طريقة ما نستطيع من خلالها مراقبته ليلاً نهاراً ، لا يهمني كيف ، ولكن المهم أن نكون على بيّنة من مكانه في أي وقت حتى وإن تطلب ذلك أن تمشي وراءه كظله .

- خلص ، اعتبر الأمر قد تمّ ، ولكنني خارج بيروت الآن ولن أصل الفندق قبل ساعة أو أكثر بقليل .

- فليكن ، واستعن بعمّتك ليلى فلها العديد من المعارف والمصادر .

تحرك طارق بأسرع ما يمكن متوجهاً إلى سن الفيل بعد أن زوده عمّه بصورة بشير . لم تكن لديه خطة معينة ، ولكنه كان مطمئناً بأنه سيستطيع أن يخلق خطة قبل الوصول إلى

الفندق . وأخذ يعصر مخّه وبدأت الأمور تتضح له وبدأت الخطة تتبلور ، بل حتى إنه فكّر بطريقة جهنمية ، والتي إن نجحت تمكنه من تتبع بشير بكل بساطة ودون أي عناء أو مشقة .

كان طارق يطير بالسيارة طيراً وهو يفكر بخطته . ثم رفع يده عن مقود السيارة وتناول هاتفه واتصل بعمّته ليلى . طالباً منها أن تصنع له بطاقة تدلّ على أنه صحافيّ وأن تزوده بكاميرا لبضع ساعات . وكان له ما طلب . فما كاد يصل مكتب عمّته حتى كانت بانتظاره ومعها البطاقة جاهزة ولا ينقصها سوى إضافة صورته عليها . سلّمته البطاقة بعد أن طُبعت صورته ، كما سلّمته الكاميرا التي طلبها ، وفي أثناء هذا كله كانت ليلى تسأله عن خطته ، وكان يجيبها باقتضاب دون أن يفصح عن خطته كليّاً ، خوفاً من أن يرفع معنوياتها للاشيء .

غادر طارق مكان عمل ليلى وانطلق يُكمل طريقه إلى الفندق ، وما هي إلا دقائق حتى كان يقترب منه ويدخل ساحته . ركن سيارته وأمسك بآلة التصوير والبطاقة الصحفية ودخل الفندق . اتجه إلى موظف الاستقبال وقدّم نفسه على أنه صحافيّ واستفسر إن كان بشيرحداد في غرفته . أكد له موظف الاستقبال أن بشير قد خرج ولا يدري متى يعود ، وهو على أي حال بإمكانه الانتظار في بهو الفندق .

شكر طارق موظف الاستقبال وانتقى مقعداً مريحاً يمكنه

أن يرى منه الخارج والداخل . وطلب فنجان قهوة ليتسلى به أثناء انتظاره ، ولكن والأهم ليشحذ به عقله حتى يستطيع تنفيذ خطته بنجاح . كان طارق متأهباً كالنمر ، يراقب الداخلين والخارجين ، كما كان يرشف قهوته وفي الوقت نفسه يعاين صورة بشير في هاتفه حتى لا يفلت منه .

مرّت نصف ساعة تقريباً قبل أن يلمح طارق شخصاً في ساحة الفندق الخارجية له ملامح شبيهة بملامح بشير ، وإن لم يكن متأكداً من ذلك بسبب بعد المسافة والجدران الزجاجية . اعتدل بجلسته وأخذ يتفرس بوجه ذاك الشخص وهو يقترب رويداً رويداً ، حتى دخل الفندق وأزال أي شك كان لدي طارق عن هويته . اقترب طارق منه وقدّم له نفسه على أنه صحافيّ ، ولكنه قبل أن يتم جملته ، اعتذر منه بشير للحظة حتى يستفسر من موظف الاستقبال عن طرده . وعند استفساره ، أكد له موظف الاستقبال أن الطرد قد وَصل وأُرسل إلى غرفته . شكره بشير ثم استدار مواجهاً طارق :

- آسف ، أخ . . . . ما الاسم الكريم مرة أخرى؟

- طارق ، وأنا صحافي وأود أن أجري معك لقاء صحفيّاً بالنسبة للمعرض الذي تعملون على إقامته في بيروت بعد يومْين .

- يسعدني ذلك أخ طارق ، ولكنني الآن مرتبط بمشوار مهم . هل من الممكن أن نقوم بذلك غداً؟

لم يستأ طارق من ذلك أبداً ، فالأمور لا تزال تمشي كما يريد ، وكان يتوقع بل كان يرجو ألاّ تتم المقابلة وأن يطلب بشير تأجيلها .

- لا بأس أبداً ، وأنا أعتذر عن قدومي دون موعد . سأعطيك رقم هاتفي حتى نتواصل خلال هذه الأيام .

- جميل . هات رقم هاتفك .

أملى طارق رقم هاتفه لبشير ، الذي قام بتخزينه على هاتفه . وقبل أن يُغادر الفندق ، بدأ طارق بتنفيذ خطته .

- دكتور بشير ، سأعطيك رقماً آخر لي ، وسأعطيك عنواني البريدي أيضاً لأنني أريد منك ، إن تكرمت ، أن ترسل لي سيرتك المختصرة حتى تساعدني في إعداد المقال .

فتح بشير هاتفه مرة أخرى ، وعندها طلب طارق من بشير أن يعطيه هاتفه حتى يُدخل هو البيانات بنفسه كي لا يؤخّره عن مشواره . سلّم بشير هاتفه لطارق الذي أخذت أصابعه تعمل به . لم يقُم طارق بإدخال البيانات الجديدة فحسب ، بل قام وبسرعة خاطفة بإعطاء نفسه إذناً بمراقبة ومتابعة مكان بشير من خلال جواله . أضاف طارق هذه الميزة ليس له فقط بل أيضاً لرقم الهاتف الثاني الذي أدخله ، والذي لم يكن سوى رقم هاتف عمّه نجيب .

أعاد طارق الهاتف إلى بشير بعد أن شكره مرة ثانية واعتذر له مجدداً على إزعاجه ، وعلى أمل أن يلتقي به في اليوم

التالي . غادر طارق الفندق بعد أن تأكد من مغادرة بشير وما إن جلس بسيارته حتى اتصل بعمّه وأخبره بما فعل . كاد عمّه أن يطير من الفرح عند سماع ما قام به طارق وأثنى عليه بذكائه ، كما قام بفتح هاتفه وتأكد من أنه بالفعل يتعقب بشير .

-٨-

ما كاد بشير يركب سيارتي ، حتى قال :

- أتدري أن صحافيّاً كان بانتظاري في الفندق لإجراء مقابلة؟ يبدو أن الصحافة بالفعل مهتمة بالموضوع .

قلت والابتسامة على شفتيّ :

- يبدو أن هذه أقصر مقابلة في التاريخ!

- آه ، لم نجرِ المقابلة لأنني لا أريد أن أضيع مشوار اليوم ، فاتفقنا على إجرائها غداً .

كنّا قد خرجنا من ساحة الفندق وأصبحنا عند الدوار أمام الفندق ، فقال بشير مستفسراً :

- هل سنمرّ من عند المتحف ، الخط الفاصل بين بيروت الشرقية والغربية .

- يا أخي ، ما لك والعودة لهذه المسميات ، لقد انتهت هذه المسميات ومضى عهدها ولم يبق هنالك شيء اسمه بيروت الشرقية ولا الغربية . هنالك بيروت واحدة . واحدة فقط يا بشير!

- يا أخي ليس سهلاً عليّ أن أجدد قاموس مفرداتي بعد هذا الغياب . لقد انزرعت وانغرزت هذه التسميات فينا ، وانت

أدرى بأنها لم تكن مجرد تسميات ، فعلى شرقية أو غربية كانت تتوقف أمور كثيرة ، كما كانت حياة الفرد مرهونة بها .

تبسّم كل منا وانطلقت متجهاً إلى المتحف عن طريق جادة إلياس الهراوي ، وبما أنه كان يوم سبت ، فقد كانت الطريق خالية من السيارات والمارة ، خاصة وأن اعتصام أمس كان قد انتهى ولم يكن له أثر ، فلم تمض دقائق حتى كنا نقترب من دوار العدلية لنتجه يساراً على جادة بيار الجميّل باتجاه المتحف . ولكنني قبل الوصول إلى دوار العدلية كنت قد خففت من سرعة السيارة وأخذت أشرح لبشير :

- أنت لا شك تعرف الكثير عن الاجتياح الإسرائيلي عام ١٩٨٢ حيث عشته قبل سفرك إلى أمريكا ، ولا شك أيضاً أنك قرأت الكثير عنه ، فلذلك لن أضايقك بالتفاصيل المعروفة ، ولكن سأذكر لك بعضاً مما كنت قد قرأته أنا وربما هي معلومات كانت غائبة عنك .

- ممتاز ، ممتاز . . . هات ما عندك بكل تأكيد .

- أنت تعرف أن جيش الاحتلال الإسرائيلي بقيادة المجرم شارون كان قد دخل من الشرق عن طريق الجبل ، بعد أن تقاعس وليد جنبلاط ، وما إن وصل الجيش الإسرائيلي إلى مناطق الكتائب اللبنانية حتى كان بشير الجميل وجماعاته في استقبال شارون وجنوده بالورود والزهور . فما هي إلا أيام قليلة وكان الجيش الإسرائيلي متمركزاً هنا عند دوار العدلية ، وقد

أخذ استحكاماته هنا ، حيث إن هذا الدوار هو على مشارف كورنيش المزرعة ، والذي هو أحد أهم وأعرض شوارع بيروت ، ويربط شرقها بغربها حتى البحر . فبالإضافة إلى التقدم نحو بيروت من الجنوب كان شارون آتياً من هنا ، من الشرق . أما الشمال والغرب فهما على البحر ، وكان الأسطول البحري الإسرائيلي منتشراً قبالة سواحل بيروت . فبراً ، كان محور دوار العدلية والمتحف من أهم المحاور . وعسكرياً ، كان من المفترض أن يكون لقمة سائغة وسهلة لشارون ، حيث إن كورنيش المزرعة بعرضه الذي يتعدى الأربعين متراً ويمتد نحو أربعة كيلومترات أو أقل قليلاً ، وكما تذكر لم يكن هنالك نفق هنا ، بل كان شارعاً مستوياً . فعسكرياً من المفترض أن يكون أمر احتلاله سهلاً ، خاصة وأننا نتكلم عن سابع أقوى جيش في العالم ، ولديه من سلاح الطيران والمدفعية والدبابات ما لم يكن لدى المقاومة اللبنانية والفلسطينية . المهم ، ما أريد الوصول إليه هو معركة الرابع من آب يا بشير!!

– آه ، على الرابع من آب ، آه . لقد أعدت ذكريات أرهَبُها ولكن في الوقت نفسه أكره أن أنساها . أتذكر كيف كنا ننتقل من منطقة إلى منطقة في سيارات الإسعاف ، وكيف كانت الطائرات الإسرائيلية تلاحقنا ونحن نداوي الجرحى أو ننقلهم إلى ما تبقى من المستشفيات والعيادات؟ كانت أشهر الحرب كلها مجنونة ، ولكن هذه الأيام المعدودة في آب كانت الأكثر

جنوناً ، مئتا ألف قذيفة وصاروخ في يوم واحد فقط من تلك الأيام . والمقاومة الفلسطينية واللبنانية صامدة كالصخرة . كان شارون قد فقد صوابه . حتى إنه ، كما كنت قد قرأت ، قال للأمريكان إنه لم يعد لديه ما يقذف به الفلسطينيين سوى القنبلة الذرية .

- صحيح ، كنت قد قرأت الشيء ذاته ، ولكن أتدري ما الذي جنن المجرم شارون؟ أو بالأحرى ما جنن القيادة الإسرائيلية بأكملها؟ ملعب سباق الخيل الذي أمامنا هناك .

- ومن ينسى العلقة الساخنة التي أكلها شارون وجيشه هنا؟

- ولكنك يا صاحبي لا تعرف التفاصيل كلها . بقيت هذه التفاصيل غامضة بالنسبة لي حتى قرأت عنها .

أصبحنا أمام الكنيسة الإنجيلية الحرة والتي تليها كاتدرائية سيدة البشارة بتصميمها الكلاسيكي من الحجر ، وكأن واجهتها واجهة معبد يوناني قديم ، يرتفع بابها ومدخلها عن مستوى الشارع باثنتي عشرة درجة من الرخام ، ويعلو المدخل سقف مثلث موفراً غطاء أمام المدخل تحمله أربعة أعمدة من حجارة ولون الجدران نفسها تماماً ، كأنك تنظر إلى واجهة معبد عمره ألفا سنة . وما هي إلا لحظات حتى لاح المتحف أمامنا على اليسار بمبناه المكون من خمسة أجزاء ، الجزء الأوسط منه عبارة عن مستطيل مرتفع عن الشارع بتسع درجات ، وكأنه

مسطبة معبد قديم ، وما يوحي بذلك هو الأربعة أعمدة في وسطه ، والتي لها تيجان على شكل اللوتس وكأنها جاءت من مصر القديمة . ويتدرج على جانبي الجزء الأوسط جزءان آخران . وتنتصب أمام ساحته على الطرف الآخر من الشارع أربعة أعمدة ونصف من الطراز الكورونثي ، وكأنها سحبت من معبد إغريقي في الزمن الغابر . وتظهر على الأعمدة تلك التي هي زهرية اللون إلى حد ما ، تظهر عليها خروم عميقة من رصاص المعارك التي دارت رحاها هنا من عام ١٩٧٥ وحتى الاجتياح الإسرائيلي . ولا أدري كيف فقد العامود الخامس نصفه الأعلى ، أهي قذيفة هاون أثناء الحرب الأهلية أم هي من قذيفة أو صاروخ إسرائيلي . المهم أن عدم وجود نصفه الأعلى إنما هو دليل مادي على ما دار هنا في الأيام الخوالي .

اقتربنا من المتحف ، وكنت ألمح بشير بين الفينة والأخرى ، وأرى أنه غير مرتاح في مقعده ، وعندما سألته عن السبب فاجأني جوابه ، إذ بسبب انقطاعه عن بيروت كان لا يزال يعيش أجواء السبعينيات من القرن الماضي ، وكان يشعر أنه عند المتحف ذي الصيت الرهيب ومكان الخطف والذبح على الهوية . طمأنته إلى أن بيروت لم تعد كذلك ، فلا خطف ولا حواجز طيّارة ولا ما يحزنون . ولا يوجد شطران بل بيروت واحدة .

– ربما هذا أسهل لك ، بما أنك عايشت تطور الأحداث

على مر العقود الثلاثة الماضية واعتدت تغيّر الأمور على أرض الواقع . ولكن حتى هذه اللحظة فإن لكلمة متحف الصدى نفسه الذي كان لدينا أثناء بداية الحرب الأهلية ، إنها كلمة موحشة وقاتلة وفاشية .

كنت أنظر إليه وهو يتحدث ، وكان واضحاً أن كل خلية في جسمه كانت تنطق بتلك الأحاسيس . لم يكن هنالك أدنى شك ، حتى بعد هذه العقود الثلاثة . واستمر بالكلام :

- تعرفت على شخص في أمريكا اسمه جوزيف متي ، وأصبحنا صديقيْن مقربين . وهذا جوزيف نجا من الموت مرتيْن ، تصوّر أن ينجو شخص مرة واحدة من موت محقق ، فما بالك بأن ينجو مرتيْن؟ مرتيْن كان بينه وبين الموت ثانية أو بضع ثوان ومن ثم تُكتب له الحياة . ولكن بعد المرة الثانية ، لم يشأ والداه أن يراهنا على حياته مرة ثالثة ، فأرسلاه إلى أمريكا ليقيم مع خاله .

أوقفت السيارة على اليمين قبل تقاطع المتحف وسألته :

- وكيف نجا مرتيْن؟

- الأولى عندما كان من سكان الدامور . كما تعلم ، فبعد ارتكاب قوات الكتائب مجزرة الكرنتينا ، أرادت بعض الفصائل اليسارية من فلسطينيين ولبنانيين الانتقام للكرنتينا ، فهجموا في أواخر شهر كانون الثاني (يناير) من عام ١٩٧٦ على منطقة الدامور والتي كانت غالبيتها من المسيحيين

اللبنانيين . ولم تكتف العناصر اليسارية تلك بالقضاء على مسلحي الكتائب الذين كانوا موجودين في الدامور بل اقتحموا حرمات بيوت المدنيين المسيحيين من سكان الدامور ، وأعملوا رشاشاتهم بهم . كانوا يدخلون على البيت الواحد ويرشّون من يرونه أمامهم ، لا سؤال ولا كلام . يفرغون ما في بطون رشاشاتهم من رصاص في بطون أصحاب البيت . وصديقي جوزيف الذي لم يكن قد تجاوز الرابعة عشرة من عمره ، كان وحده في بيتهم في الدامور ، مختبئاً في إحدى الغرف عندما اندفع أحد المقاتلين داخل بيتهم ودخل على الغرفة التي هو فيها . وبالرغم من أنه كان مختبئاً في خزانة الملابس ، إلا أن المقاتل هذا رآه ، وصوب رشاشه إلى صدره وضغط زناده ليكتشف أن مخزن الرشاش فارغ ، وفي تلك اللحظة دخل مقاتل آخر بشكل مضطرب وأمسك بالآخر آمراً إياه بالإسراع إلى الطرف الآخر من الشارع ، حيث رفاقهم يشتبكون مع قوة كتائبية أتت لنجدة أهل الدامور . وقبل أن يتفوه المقاتل ليشرح لزميله أنه يريد أن يقضي على هذا الذي في الخزانة ، كان زميله قد سحبه إلى خارج البيت وانطلقا جرياً إلى حيث رفاقهم . ولم ينتظر جوزيف أكثر من ثوان حتى أطلق لرجليه العنان واختفى في مزارع الموز . بقي مختفياً في مزارع الموز بضعة أيام قبل أن يستطيع الوصول إلى المنطقة الشرقية ، حيث كانت بقية عائلته ، والتي كانت في زيارة عمه هناك قبل بدء

الهجوم على الدامور .

- يا الله ، كُتبت له النجاة من موت محتم . إنه بالفعل محظوظ .

- لا ، الحظ الحقيقي هو أن ينجو من الموت مرة ثانية ، وألا يفصل بين الأولى والثانية سوى أشهر معدودات .

- وكيف حدث ذلك؟

- كما قلت ، فقد كان لجوزيف عم يسكن في المنطقة الشرقية ، واضطروا أن يمكثوا عنده ريثما يدبروا أمورهم من سكن وعمل ومدارس . المهم ، أنهم استأجروا بيتاً هنا في هذه المنطقة كما قال لي ، وأنه قريب من فندق ديو . وفندق ديو كما تذكر ، وإن لم تخنّي الذاكرة ، كان على مسافة مئتي أو ثلاث مئة متر من المتحف ، من الخط الفاصل بين بيروت الشرقية والغربية ، من خط الموت .

- بالفعل ، كان لكلمة المتحف حينها معنى آخر ، كان جسد الشخص يرتعش عندما يسمع هذه الكلمة .

- المهم ، أنه في أحد الأيام كان جوزيف عائداً من زيارة صديق له يبعد عنهم بضعة شوارع باتجاه سباق الخيل . ولم تكن هذه أول زيارة له بل كان يزوره عدة مرات في الأسبوع . ولكن في هذه المرة وهو عائد إلى بيتهم ، عائدٌ من الشارع نفسه الذي أتى منه قبل ساعة ، استقبله حاجز طيّار في ذلك الشارع الذي كان قبل ساعة خالياً من أي شيء .

لم ينفك بشير يذكرني بمصطلحات طالما نسيتها منذ دهر . حاجز طيّار! يا إلهي كم كان لهذا المصطلح من وقع على نفوس الناس ، أو الرعب القاتل الذي كان يسكن في نفسك وعقلك وأنت تتنقل في سيارتك ، خوفاً من أن تصادف حاجزاً طيّاراً حتى لو أنك كنت لا تزال تبعد نصف كيلومتر من الخط الفاصل . لم تكن تسمية هذه الحواجز بالطيّارة مسألة اعتباطية ، بل كان بكل معنى الكلمة حاجزاً طيّاراً . فالطريق التي تكون خالية قبل خمس دقائق يظهر فيها حاجز طيّار فجأة ، ولا يمكث وجوده سوى دقائق يوقفون أثناءها سيارة أو بضع سيارات ويخطفون من بداخلها من الطوائف أو الجنسيات التي لا تروقهم ، وتكون نهاية هؤلاء سيئي الحظ الذبح . وتظهر أسماؤهم في صحف الأيام التالية في إعلانات يضعها أقاربهم تحت عناوين «خرج ولم يعد» . ولم تكن الحواجز الطيّارة حكراً على أحد والحمد لله ، بل كانت هنالك مساواة بين المنطقتيْن الشرقية والغربية . وفي كثير من الأحيان ، عندما يضجر أحد المسؤولين من الهدوء النسبي ، ويريد أن يتسلى ، يأمر عناصره بإقامة حاجز طيّار في المنطقة الفلانية وإحضار بعض الغنائم . هكذا كانت أرواح الناس ، لعبة بيد مسؤول غير مسؤول ، والعناصر كلها سمع وطاعة كالخرفان .

– عندما دخل جوزيف الشارع وشاهد الحاجز الطيّار على مسافة خمسين متراً استدار ليعود أدراجه ، إلا أنه سمع

خرطشة الرشاشات لحقها صوت آمر بأن يقف مكانه ، فوقف مكانه لا يحرك ساكناً ، وما هي إلا ثوان حتى جاءه صوت آخر بالتحرك باتجاه الحاجز . ولم يكن لديه خيار إلا الانصياع . عندما وصل الحاجز طلب أحد العناصر الملثمين هويته وعندما تحقق أنه مسيحيّ شعر جوزيف بالملثم يبتسم وكأنه حصل على صيده ، وأدرك جوزيف أنه هالك لا محالة ، وقبل أن يعيَ ما سيحصل له وإذ برأسه يتلقى ضربة من أخمص رشاش أحد العناصر ، فخرّ على الأرض ، وفي تلك اللحظة تماماً توقفت سيارة بقربه قفز بداخلها العناصر بعد أن رموه بداخلها أيضاً وانطلقوا . عندما توقفت السيارة فيما بعد اُقتيد إلى بناية مهجورة يحرسها أربعة عناصر ملثمين . وأُنزل إلى قبو البناية بينما أحد العناصر يمسك بياقة قميصه ويشده وكأنه خروف يُجر إلى المسلخ ، ووصف لي جوزيف رائحة كريهة كان يشمها وهو ينزل الدرج لم يدر ما هي حتى وصل إلى نهاية الدرج ودخل أول غرفة . بالرغم من الضوء الخافت إلا أنه رأى جثثاً مرمية على الأرض وشعر بقدميه تغوصان بشيء لزج على أرض القبو غير المبلط ، وعندما صار قريباً من الجثث أدرك أنها ذُبحت ذبحاً من الوريد ، إلى الوريد وعرف أن هذا مصيره الذي ينتظره ، فأخذ بالبكاء والدعاء للملثمين أن يتركوه وأنه طفل لا دَخل له بأي شيء . . . ولكن دون فائدة . . . لا حياة لمن تنادي . وفجأة لمع نصل سكين ، ومن خلال سيل رجائه كانت

الشتائم عليه تتراكم بينما نصل السكين يقترب من وريده ، وفجأة هدر صوت من الطرف الآخر للغرفة طالباً من الملثم أن يتوقف . توقفت يد الملثم كما توقف قلب جوزيف من الخوف . وجاءه صوت ذلك الشخص سائلاً إياه إن كان هو جوزيف متي . ومن خوفه وارتباكه ورعبه لم يستطع جوزيف أن يرد ، فسأله مرة أخرى بعصبية إن كان هو جوزيف ابن أبي جوزيف متي من الدامور؟ فهز برأسه ورد بالإيجاب . وعندها جاءه ذلك الشخص وقال له إنه كان يعمل لدى والده في الدامور قبل الحرب ، فخلصه من الآخرين وأركبه في سيارته وأخذه إلى حدود المنطقة الشرقية حيث أنزله .

سكت بشير ، وسكتّ أنا قبل أن يكمل بشير :

- وهذه قصة جوزيف الذي نجا مرتيْن من موت محقق . وللأسف لم تكن نهاية آلاف مؤلفة من الأبرياء من الطرفين نهاية سعيدة مثله .

- والمؤسف المبكي أن كل الخطف الذي كان يحصل من هنا وهناك ومن ذبح على الهوية كان يتم بسبب كلمة يتفوه بها مسؤول صعلوك .

- نعم ، لم يدمروا ولم يقتلوا رجالاً ونساء بل قتلوا الثقة والترابط ، وأكثر من ذلك خلقوا حدوداً كنّا ولا نزال نحن في غنى عنها .

انتهى بشير من قصته تلك وتحركنا عبر التقاطع ، وهنا

طلبت منه أن ينتبه لما سأقوله ، فقد أشرفنا على ميدان سباق الخيل ، والذي كان مشهداً لمعركة من أروع المعارك في العصر الحالي . وبعد أن تخطينا مبنى مديرية الأمن العام أوقفت السيارة على حافة الرصيف المقابل لميدان سباق الخيل حتى أستطيع أن أشرح له بشكل جيد ، مبتدءاً بوصف ميدان سباق الخيل حتى يستوعب ما حدث .

إن ميدان سباق الخيل هو عبارة عن حلبة لسباق الخيل كحلبات الجري والسباق الأخرى طولها نصف كيلومتر (يمتد شرقاً-غرباً) وعرضه ما بين ٢٠٠ و٢٥٠ متراً ، والميدان محاط بحائط كالسور من الحجر الذي كان بنياً فاتحاً ضارباً إلى الأصفر ، وصار مع الزمن ملوثاً بالأسود والرمادي ، ويرتفع هذا الحائط حوالي المترين ونصف المتر . وميدان سباق الخيل يقع تماماً بين المتحف وبداية كورنيش المزرعة ، والذي كان (المتحف) يشكل فاصلاً بين بيروت الشرقية والغربية أثناء الحرب الأهلية . وأثناء الاجتياح الإسرائيلي عام ١٩٨٢ ، كان الجيش الإسرائيلي متواجداً وبتعزيزات كبيرة بين دوار العدلية والمتحف بمئات الدبابات وناقلات الجنود والآليات وآلاف الجنود المدججة . وعلى مدى شهرين ونصف لم يستطع شارون ومن معه أن يتقدم متراً واحداً ما بعد الخط الفاصل . آلاف الأطنان من صواريخ الطائرات والبارجات ، وآلاف مؤلفة من قذائف الدبابات والمدفعية لم تساعدهم على التقدم شبراً واحداً ، فقد

كانت المقاومة الفلسطينية اللبنانية المشتركة في أروع صورها وتضحياتها، وكانت ترد شارون على أعقابه في كل مرة، وكان الجيش الإسرائيلي يتقدم أحياناً مئة متر ولكن سرعان ما يضطر للانسحاب إلى المتحف، بعد أن يكون مقاتلو القوات المشتركة قد تعاملوا معه، وهم المتمترسون في شارع عبد الحفيظ الشعّار ومحمد الحوت والأزقة الأخرى.

ولكن بعد شهرين من حصار بيروت وعدم تمكنه من تحقيق أي مكاسب ميدانية، أراد شارون أن يرمي بكل ما لديه دفعة واحدة، حتى يحقق نصراً عسكرياً يسبق الاتفاق السياسي لخروج منظمة التحرير الفلسطينية من لبنان، ويكون بذلك قد حقق هدفه وهو دخول بيروت دخول القائد العسكري المنتصر في أرض المعركة، وليس عن طريق اتفاق سياسي يمنعه من تلك النشوة. يريد شهادة تدل على أنه قهر منظمة التحرير الفلسطينية وعرفات بالذات وأنه دخل بيروت بالقوة، بقوته هو. ففي بداية آب (أغسطس) بدأ التمهيد لتلك المحاولة المستميتة بالقصف المركز على محور كورنيش المزرعة وكل متر حول ميدان سباق الخيل، وأخذت مدفعيته ودباباته وطائراته وبارجاته تقصف على مدار ٢٤ ساعة دون توقف، لتطهر المنطقة من المقاتلين وليتسنى لشارون القيام بنزهته على كورنيش المزرعة. ولكن شارون يبدو أنه لم يقرأ مقولة المتنبي المشهورة «ما كل ما يتمنى المرء يدركه، تجري الرياح بما لا تشتهي السفن».

فالمقاومة كانت مستعدة له وبالمرصاد . وبفعل القصف المركز ، والذي لم يسبقه مثيل على ذلك المحور ، أدركت القيادة الفلسطينية أن شارون يحضر لعمل ما ، فيقول بسام أبو شريف ، وهو الذي كان متواجداً مع أبي عمار وأبي جهاد وأبي الوليد في غرفة العمليات المركزية ، يقول في كتابه أن أباجهاد أرسل فدائياً اسمه سمير إلى مبنى السفارة التشيكية المطلة على ميدان سباق الخيل والمتحف وكورنيش المزرعة ، بعد أن زوده بجهاز لاسلكي خاص ، وأخذ سمير ينقل للقادة الوضع الميداني عند المتحف . فنقل لهم أن هنالك تجمعات هائلة للإسرائيليين على غرار الأيام والأسابيع السابقة ، وأدرك أبو الوليد وهو العقلية العسكرية الفذة ومن خريجي التفوق من معهد ويست بوينت ، عندما كان في الجيش الأردني ، أدرك أن شارون يريد أن يقتحم بيروت تلك الليلة ، وأنه على ما يبدو يريد الدخول إلى ميدان سباق الخيل حتى يكون محجوباً خلف جدرانه المرتفعة ، ومن ثم يحدث فجوة في الحائط الغربي للميدان ، فيكون قد وصل أول كورنيش المزرعة ، ومن هنالك تجري دباباته على الجادة جرياً .

فأصدر أبو الوليد تعليماته لكل قادة الفصائل والقادة الميدانيين بأن يزودوه بكشف عن كل الأسلحة والذخائر المتوفرة عند محور ميدان السبق ، وما هي إلا ساعتان وكان لديه ما طلب ، وأمر بتوجيه فوهات مدافع كل الفصائل على ميدان

سباق الخيل وعلى إحداثيات معينة ، وأمر ألا يطلق أحد النار حتى يأتي الأمر المركزي منه هو . وهكذا كان . كان سمير يواظب على نقل المستجدات للقيادة لحظة بلحظة ، وعندما بدأت ساعة الصفر نقل سمير للقيادة ما مفاده أن الدبابات الإسرائيلية قد بدأت تدخل ميدان سباق الخيل من خلال فتحة في الأسوار الشرقية ، فأصدر أبو الوليد تعليماته ليكون الكل على أهبة الاستعداد ، وأن لا يبدأ أحد بالرد إلا بأمر مركزي . ثم بعد دقائق جاء صوت سمير يقول إن الدبابات تتقدم وهي عند ربع الميدان . . . والقادة في غرفة العمليات يستمعون والأعصاب كلها مشدودة . . . . عند ثلث الميدان . . . التوتر يزداد وتزداد نظرة أبي الوليد الحادة حدة . . . . عند منتصف الميدان . . . الكل في غرفة العمليات مشدود الأعصاب ، وأبو عمار يقطع الغرفة ذهاباً وإياباً وهو مطرق يفكر . . . ثم جاء صوت سمير يقول إن مئات ومئات من الجنود الإسرائيليين قد بدأوا يتدفقون داخل الميدان وخلف الدبابات .

عندها ، حبس القادة أنفاسهم ، وثبت أبو الوليد عيناه على ساعته وبدأ يعدّ في نفسه ، دقيقة . . . دقيقتان . . . . ثلاث دقائق ، ثم كانفجار البركان المفاجئ أعطى الأمر لجميع القادة الميدانيين عبر اللاسلكي بأن يفتحوا النار . وانصبت نار جهنم على الجيش الإسرائيلي الذي كان قد حُشر داخل الميدان ،

انصبت القذائف من كل صوب على الميدان ، مئات القذائف من شتى المدفعيات والراجمات أخذت طريقها إلى الميدان . لحظتها ، هبطت جهنم إلى الأرض ، هبطت إلى ميدان سباق الخيل . القذائف والصواريخ تنصب على الميدان ، وبدأت الدبابات الإسرائيلية معركة الهروب إلى الوراء ، وارتبكت ، وارتطمت ببعضها البعض ، وعلقت . ثم بعد دقائق من الجحيم أمر أبو الوليد بوقف النار . وفي لحظة هدأ كل شيء وكأن شيئاً لم يكن ، بينما الدبابات الإسرائيلية كانت لاتزال تشتعل وتتفجر من انفجار الذخيرة التي بداخلها ، وصراخ وعويل الجنود الإسرائيليين الجرحى يملأ الميدان ويصل آذان الفدائيين من القوات الفلسطينية اللبنانية المشتركة ، وكأنهم يستمعون إلى أجمل سمفونية . . . . وبعد دقائق قليلة جاء صوت سمير قائلاً إن الجنود الإسرائيليين يدخلون إلى الميدان لإخلاء الجرحى والقتلى . . . وأصدر أبو الوليد أوامره وانفجر البركان مرة ثانية وانفتحت النار ، واشتعلت جهنم مرة أخرى . تطايرت أشلاء الجرحى ومن جاء ينقذهم ، وتفجرت أجسام الجنود القابعين في توابيتهم الفولاذية ، وفقد شارون ومن معه ساعتها صوابه ، وأدرك حينها أنه أمام مهمة مستحيلة وأكثر من مستحيلة لدخول بيروت الغربية . . . بيروت الغربية الصغيرة بحجم راحة اليد .

- كانت ، يا بشير ، معركة مدهشة ، مدهشة لأقصى حد .

خسر فيها الإسرائيليون مئات من القتلى والجرحى . مئات خلال دقائق معدودات . أما خسائرهم بالدبابات والمعدات ، فحدث ولا حرج . لقد أنشبت المقاومة اللبنانية الفلسطينية المشتركة خناجرها بوجه شارون تلك الليلة . هذه قصة ميدان سباق الخيل عام ١٩٨٢ يا بشير .

بقينا في السيارة لحظات ليستوعب بشير التفاصيل التي ألقيتها عليه للتو ، وأنا لا يخفى عليه أغوص في التفاصيل في مخيلتي مرة أخرى وأستمتع بحذافيرها . تبادرت إلى ذهني فكرة لماذا يوجد مبنى الأمن العام هنا بالذات في هذا المكان الذي كان هو بمثابة نقطة فصل بين بيروت الشرقية والغربية أيام الحرب الأهلية؟ هل هو مجرد صدفة؟ أم أنه مقصود لتوطيد أجندة معينة؟ وقطع حبل أفكاري مشهد عنصر من الدرك اللبناني رأيته من خلال مرآة سيارتي وهو يقترب من السيارة ، وكان واضحاً أننا وجهته . اقترب أكثر هو وسلاحه الأوتوماتيكي بيديه فنبهت بشير إلى ذلك . وعندما وصل إلى شباكي وكنت قد فتحت الشباك تحسباً ، طلب منا أن نتحرك من مكاننا حيث كنا متوقفين بالقرب من مبنى مديرية الأمن العام ، والوقوف هناك ممنوع . اضطررت أن أكذب على الدركي عندما سألنا عن سبب التوقف ، فقبل أن يجيب بشير ، والذي لا أشك أنه كان سيقول له إنني أعيد عليه ذكريات المعارك والقتال والقصف والتفجير ، قبل أن يقول أياً من هذا بادرت

بالقول بأننا ننتظر صديقاً لنقلّه معنا . عذر بريء للتوقف ، لا سين وجيم بعده . وأضاف الدركي أننا نستطيع أن ننتظره عند نهاية الشارع ، فشكرناه وانطلقنا .

-٩-

في تلك الأثناء ، كان نجيب قد ركن سيارته في شارع خلفي في منطقة الحمرا وترجل منها وانطلق قاصداً مقهى الحمرا المقابل لفندق كراون بلازا . لم يكن قد حضر إلى هذه المنطقة منذ زمن ، وكان يدرك مجازفته بذلك ولكنه كان مضطراً أن يجيء بنفسه . ففي الصباح وقبل أن يُحدّث ابن أخيه طارق كان قد اتصل بأحد أصحابه المقربين طالباً منه يُدبّر له مسدساً لمهمة عاجلة ، وأنه يريده في الحال . لم يتردد صديقه بتلبية ذلك ، ولكن وبسبب ارتباطه بموعد مع أحد المسؤولين السياسيّين للتحضير لعملية انتخابه فلا يستطيع أن يلقاه إلا في منطقة الحمرا قريباً من مكان اجتماعه .

وصل نجيب عند مقهى الحمرا ، وما إن دخله حتى انتبه إلى أن المقهى هو قسمان ، القسم الأول عبارة عن قاعة تبدأ من عند الباب مباشرة ويطل على شارع الحمرا ، والقسم الثاني يلي القاعة الأولى وهو عبارة عن ساحة تتخللها بضع شجرات ونباتات لتوحي للجالس أنه في حديقة في وسط المنزل .فقصد نجيب الحديقة وانتقى طاولة مخفيّة نوعاً ما . إلا أنه وبسبب الأشجار والنباتات ، لم ينتبه نجيب إلى وجود شخصيْن

جالسيْن على طاولة قريبة منه . فما إن استقر في مقعده حتى كان أحد الشخصيْن ، والذي كانت عيناه تلاحقانه منذ أن دخل الحديقة ، قد بدأ بتفرس وجهه ويحاول أن يلتقط صورة له بجواله . كان شبه متأكد من أن هذا الرجل ليس سوى نجيب بلحمه وشحمه . ولكنه في الوقت نفسه كان يتساءل إن كان هو بالفعل نجيب . حصل الرجل على صورة واضحة ألحقها بمقطع فيديو يُظهر حركاته ووجهه من عدة زوايا .

- ما بك يا أمين؟ منذ أن دخل ذلك الرجل وعيناك لم تفارقاه . هل هو من معارفك القدامى؟

لم يرد أمين على زميله ولكن استأذن منه ليقوم بمكالمة هاتفية خارج المقهى . وبالفعل ما إن خطا خارج المقهى حتى اتصل بمسؤوله ونقل إليه ما رأى . لم يصدق المسؤول أذنيه في بادئ الأمر واعتقد أن كل هذا ليس إلا اختلاط الأمور على مهاتفه . ولكن عندما أرسل له صورة نجيب ومقطع الفيديو ، تبدد أي شك كان لدى المسؤول ، وطلب منه ألا يختفي عن نظره ولو لثانية واحدة ؛ لأنها هذه فرصتهم الوحيدة والتي هبطت عليهم كهدية من السماء لمعرفة مكانه حتى ينالوا منه . طلب منه المسؤول أن ينتظر في المقهى وسيُرسل له شخصاً يُعطيه جهازاً إلكترونياً يُمكّنهم من متابعة سيارته عن طريق الإنترنت .

أنهى أمين مكالمته وعاد إلى جليسه في المقهى وأخبره

بفحوى مكالمته مع مسؤولهم :

- أنت لم تكن معنا من قبل ثلاثين سنة حتى تدرك الصيد الثمين الذي قادته الأقدار إلينا .

- صيد؟ أي صيد يا هذا؟ من قبل أن تخرج لإجراء مكالمتك وأنت غير طبيعي وظاهر عليك التوتر . ما الأمر؟

- لا تحرك رأسك ، ولا تنظر باتجاهه ، ولكن ذلك الرجل الذي دخل قبل قليل ، وهو يجلس على تلك الطاولة اسمه نجيب ، ونحن في الحزب كنّا قد نسينا أمره بعد أن فقدنا أيّ أمل بالعثور عليه أو حتى بالعثور على أي معلومات عن مكان سكنه أو عمله . . . حتى إننا اعتقدنا أنه غادر لبنان نهائياً خوفاً على حياته .

- وما يدريك ، لعله غادر لبنان بالفعل وجاء للزيارة .

- ممكن .

- طيب ، يا سيّد أمين ، وما أهمية هذا الصيد؟

- هذا السيد نجيب تواطئ مع الجيش الإسرائيلي وكان السبب وراء اغتيال أحد أبطالنا على يد الجيش الإسرائيلي .

- كيف؟

وقبل أن يرد على سؤال جليسه ، جاءته رسالة نصية على جواله من مسؤول الحزب تؤكد أن زميلاً لهم سيكون عنده في المقهى في غضون ثلث ساعة ليُعطيه جهاز التتبع . وأكد عليه المسؤول مرة أخرى ألاّ يجعل نجيب يغيب عن عينه .

أشرك أمين زميله بفحوى الرسالة ومن ثم أخذ يشرح له قصة نجيب .

- أتذكر عملية الويمبي التي تمت في أيلول ١٩٨٢ بعد دخول الجيش الإسرائيلي لبيروت؟

- طبعاً وهو مقهى الويمبى الذي هنا في شارع الحمرا . كيف لي ألاّ أذكرها وهي من أشهر العمليات البطولية ضد الجنود الإسرائيليين والتي فتحت الباب على مصرعيه أمام عمليات أخرى .

- صحيح ، وكانت عملية جريئة ومهيبة بالرغم من بساطتها ، إذ تقدم الشاب خالد علوان بثيابه المدنية ، والذي كان من الحزب القومي السوري ، تقدم بخطى ثابتة من مقهى الويمبي حيث كان يدري مسبقاً من خلال مراقبته للأيام السابقة ، أن ضابطاً إسرائيليّاً وجنديّْن سيكونون جالسين في المقهى على الرصيف يشربون القهوة . وبالفعل كانوا كذلك ، وما إن أصبح على بعد مترين منهم ، فإذ يسحب من تحت قميصه سلاحه الرشاش ويفرغ مخزنه في هؤلاء الثلاثة . وما إن أفرغ رشاشه حتى فرّ بخطى مسرعة في اتجاه نزلة شارع عبد العزيز بعد أن رمى سلاحه على الأرض . وبين نزلة شارع عبد العزيز والشوارع المتفرعة منه كان خالد قد تمكن من الاختفاء وكانت النتيجة مقتل الضابط وجرح الجنديين .

لم تفارق عينا أمين نجيب طوال حديثه وكان يراقبه

كالصقر وينتظر على أحرّ من الجمر أن يأتي زميلهم بالجهاز في أقرب وقت ممكن . . . وفجأة دخل رجل بسترة أنيقة وربطة عنق ويحمل ظرفاً متوسط الحجم ، واتجه إلى طاولة نجيب الذي وقف محيياً وأجلسه بقربه .

تابع حديثه عن عملية الويمبي دون أن يتوقف عن مراقبة نجيب وجليسه :

- وأهمية عملية الويمبي ، كما ذكرت أنت قبل قليل ، ليست في عدد قتلى الإسرائيليين ، إنما في جرأتها وتبعاتها . فالجيش الإسرائيلي لم يدخل بيروت إلاّ بعد مغادرة الثورة الفلسطينية ، حسب الاتفاق اللبناني-الفلسطيني . وحتى وقت عملية الويمبي لم يكن قد مضى على دخولهم بيروت سوى أيام ، ولذلك كان الناس لا يزالون في حالة التخدير واللاوعي والضياع وعدم التصديق . فجاءت هذه العملية كالصفعة لسكان بيروت حتى يفيقوا من حالة اللاوعي والتخدير التي كانوا يعيشونها .

قام جليس نجيب من كرسيه وكان واضحاً أنه يريد المغادرة ، وبالفعل صافح نجيب وابتعد عن طاولته متجهاً للمخرج ، وقد ترك المظروف على الطاولة . وما هي إلا لحظات حتى رفع نجيب يده مشيراً للنادل أن يحضر الفاتورة .

- هذه مشكلة كبيرة ، لقد طلب نجيب الفاتورة ولم نحصل على جهاز التتبع بعد . يجب أن نتصرف .

قال أمين جملته تلك وقفز من مكانه واتجه إلى النادل وأخذه جانباً . أخرج من جيبه ورقتيّ عشرين دولاراً ناولها للنادل ، وطلب منه أن يماطل بمحاسبة نجيب . . . وأن يؤخره عشر دقائق أخرى . تفاجأ النادل بالمبلغ وإن لم يبدو آبهاً بسبب الطلب ، فأخذ الأربعين دولاراً مؤكداً أنه سيتصرف . وبالفعل ما هي إلا دقيقتان حتى خرج النادل متجهاً إلى طاولة نجيب حاملاً صينيّة عليها فنجان قهوة تفوح منه رائحة قهوة شهيّة وصحن فيه قطعة حلوى . وضع فنجان القهوة وقطعة الحلوى على الطاولة أمام نجيب الذي بدا مستغرباً ومتضايقاً نوعاً ما .

- لم أطلب كل هذا! أنا طلبت منك الفاتورة فقط!

- سأحضرها لك فوراً ، ولكن هذه القهوة والحلوى هي تَقدمة من المقهى ؛ إذ إننا نحتفل بسنوية افتتاحه .

لم يرد نجيب إذ أن رائحة القهوة الشهية كانت أكثر من أن يقاومها . فابتسم وشكر النادل وبدأ بارتشاف قهوته .

- حسناً فعل ذلك النادل .

- حسناً فعلت أنت بتصرفك السريع . المهم ، ما دخل نجيب بعملية الويمبي؟

- أين كنّا؟ آه ، نعم ، نعم ، قلنا إن عملية الويمبي هذه جاءت كالصفعة لسكان بيروت حتى يفيقوا من حالة اللاوعي والتخدير التي كانوا يعيشونها . وبالفعل ، ما هي إلا أيام معدودات حتى توالت العمليات ضد أي وجود للجنود

الإسرائيليين . ولم تقتصر هذه العمليات على حزب أو فصيل معيّن ، بل كل الأحزاب والفصائل الوطنية كان لها دور وحتى من قبل أفراد غير منتمين إلى أي حزب . وإحدى العمليات هذه كانت من حزبنا وقام بها الزميل أبو رياض . وأبو رياض كان من خيرة شباب الحزب ومن أقدمهم . جاء من إحدى قرى الشمال واستقر في بيروت وكان مؤمناً بعروبة لبنان ، ودافع عن عروبة لبنان بل إنه دفع حياته ثمناً لعروبة لبنان وشرف لبنان .

- بصراحة ، لا أذكر أنني سمعت بأبي رياض من قبل .

- للأسف نحن العرب كثيراً ما ننسى أو نتناسى أبطالنا .

على أي حال ، ما قام به أبو رياض كان شبيهاً لحد كبير بما قام به خالد علوان في مقهى الويمبي ، وإن اختلف المكان والسلاح . كان يسكن أبو رياض في منطقة الروشة ، وكان بالقرب من شقته العديد من المطاعم والمقاهي ، والتي اتخذها الجنود الإسرائيليّون مراتع لهم . ولكنهم وبعد عملية الويمبي بدوا أكثر وعياً وكانوا لا يجلسون في المكان نفسه مرتيْن أو هكذا تهيّأ للناس . ولكن أبو رياض كان قوي الملاحظة ، وكان يجلس على شرفة شقته ساعات وساعات يأكل ويقرأ ويتحدث ويدخن النرجيلة ويراقب . كان يراقب حركة الجنود الإسرائيليين ومواعيد قدومهم ومغادرتهم ، حتى أصبح يعرف أشكالهم واحداً واحداً ، وبرنامج إيابهم وذهابهم ، واكتشف ترتيبياً معيناً

لأماكن جلوسهم ، كما اكتشف أن لدى بعض قادتهم اجتماعاً أسبوعيّاً يقام كل مرة في مقهى مختلف ، وإن كان هذا يتبع ترتيباً معيناً بحد ذاته . وذات نهار ، ومن خلال شباك سيارة كان قد ركنها ليس بعيداً عن المقهى ، أطلق أبو رياض قذيفة أر بي جي المضادة للدروع على الضباط المجتمعين الذين يرشفون القهوة بكل اطمئنان . . . وما إن انطلقت القذيفة حتى كان هو يقفز من السيارة كالنمر ورشاشه بيده . توقفت سبابته مرتيْن فقط حتى يستطيع أن يبدل مخزن الرشاش . وما إن فرغ المخزن الثالث حتى كان أبو رياض قد اختفى وكأن الأرض قد انشقت وبلعته . المهم أن الحصيلة كانت مقتل سبعة ضباط كبار ومقتل ثمانية جنود برتب مختلفة عدا بضعة جرحى .

- رائع ، رائع . وبعدها ، ماذا حصل؟

- تكتم الحزب عن مسؤوليته عن العملية لأنه كان يعرف أن إسرائيل ستقيم القيامة وتقعدها ، وستنال ممن قام بهذا العمل ولو كلفها الغالي . ولكن وبطريقة أو أخرى ، استطاع هذا الحيوان نجيب أن يعرف أن أبا رياض من قام بهذا العمل . ويبدو أنه أو أحد معارفه عرف ذلك عن طريق غادة أخت أبي رياض . وكانت هذه هدية كبيرة لنجيب ؛ لأنه كان يريد الانتقام من غادة وحبيبها بشير وهي التي حرقت قلبه . وبما أنه كان يعرف أن بشير يقضي معظم وقته مع أبي رياض ، قرر نجيب أن يُبلغ الإسرائيليين بمسؤولية أبي رياض ؛ لأنه خمّن أنه

عندما تقوم بتصفيته فسوف يذهب بشير ضحية التصفية أيضاً لوجوده مع أبي رياض . وبالفعل قامت مجموعة من الجيش الإسرائيلي بخطف أبي رياض من شقته ومن ثم قاموا بتصفيته . ومن خلال تحريات الحزب علمنا بشكل قاطع أن نجيب هو من بلّغ عن أبي رياض ، وكان السبب في استشهاده .

- ابن الكلب ، ضحى ببطل وطني من أجل انتقام سخيف!! والله إنني مستعد لأن أشرب من دمه .

- المهم أنه قبل أن يقوم الحزب بالانتقام من نجيب ، أخذت عائلة أبي رياض على عاتقها تصفيته ، ولكنهم وللأسف أخطأوا التقدير وقُتل أخوه الذي كان برفقته وقتها ونفد نجيب بجلده ، وعندها أدرك أنه انكشف فاختفى عن الأعين حتى اليوم .

ما إن أنهى أمين كلامه حتى جاءته رسالة نصية تخبره أن زميله ينتظره خارج المقهى ومعه جهاز التتبع . قام أمين وزميله ودفعا حسابهما وتوجها إلى الخارج ، حيث كان ينتظرهما زميلهما الذي سلّم الجهاز لأمين . عاين أمين الجهاز الذي كان بحجم قطعة نقود من الحجم الكبير نوعاً ما ، وكان مثبتاً به مغناطيس مما يجعله مناسباً للتثبيت على السيارات . كان أمين قد وضع خطة بسيطة تمكنهم من إلصاق جهاز التتبع بسيارة نجيب دون أن يلفتوا الانتباه . وبالفعل نفذوا الخطة بحذافيرها .

ما إن خرج نجيب من المقهى حتى لحق به زميلا أمين

الذي توارى عن الأنظار حتى لا يراه نجيب ، الذي كان مواجهاً له في المقـهى وقـد يرتابه الشك . ومـا إن وصل نجـيب عند سيارته وهمّ بفتح بابه ، حتى اقترب منه أحد الزميلْين وسأله عن كيفية الوصول إلى إحدى ضواحي بيروت . وما إن استدار نجيب ليصف له الطريق ، حتى تحرك الآخر وثبت جهاز التتبع في مكان مخفي بالقرب من الإطار الخلفي .

ركب نجيب سيـارته وفتح المظروف الذي كـان بيـده ونظر بداخله ، واطمأن إلى وجود المسـدس وكاتم الصوت الذي طلبه من صديقه . . . . وانطلق بسيارته .

-١٠-

تحركت أنا وبشير من أمام مبنى الأمن العام وما هي إلا ثوان وكنا نمرّ من أمام شارع عبد الحفيظ الشعّار ، فذكّرت بشير كيف أن مجموعة من المقاومة الوطنية اللبنانية الفلسطينية كانت تتمركز هنا في هذا الشارع أثناء حصار بيروت ، والتي كان لها دور في المعارك على مدى شهرين . هنا يا بشير كان يربض المقاتلون من القوات المشتركة يتمترسون تحت تلك البنايات ، ومن هنا انطلق المقاتلون يتحدون الموت ، ويتحدون آلة القتل الإسرائيلية . فقبل أن تصل دبابات وآليات الجيش الإسرائيلي إلى هذا الشارع ، يكون هؤلاء المقاتلون قد تعاملوا معها . من أين يظهرون؟ لم يدر الإسرائيليون من أين . كل ما يدرونه أنهم كانوا يتقهقرون ويعودون إلى ما وراء المتحف وذيولهم بين أرجلهم ، بعد أن يكونوا قد تكبدوا خسائر كبيرة في الدبابات والعتاد والجنود . هذان السوران الأصفران في بداية شارع الشعّار شاهدان على كل ذلك . لو تنطق هذه الأسوار لروت لنا كل القصص البطولية التي حدثت هنا ، ولحدثتنا كيف أن أبا علي المقاتل هنا في هذا الشارع حصد طاقم دبابة إسرائيلية بمخزن واحد من رشاشه ، بعد أن قفزوا

خارجها بعد إصابتها ، وها هو يوسف يدمر دبابة ودبابتيْن . أما سكان المنطقة ، فقد هرعوا إلى أسطح العمارات وأشعلوا النيران بإطارات السيارات ، حتى يحولوا دون قصف الطائرات الإسرائيلية مواقع المدافعين عن منطقتهم .

استمررنا بالسير ثم طلب بشير أن ننعطف يميناً على شارع بشارة الخوري . انعطفت يميناً بالسيارة وخففت من سرعتي حتى يتسنى لبشير أن يتفرج على الشارع والمباني والناس . وكان هنالك خليط من المحال والبنايات ، فمنها القديم ومنها الجديد ، ومنها ما بين هذا وذاك ، والمهم أنها كلها مرصوصة إلى بعضها البعض . فهنا محل محمود حمود للخردوات ، ومحل محمد السايس لتصليح الأدوات المنزلية ، ويبدو أن كليهما من أقدم محلات المنطقة بأكملها ، حتى تتوقع أن لديهما من القطع ما يعود إلى أيام الحرب العالمية وحتى اسم محليهما فهو مكتوب بخط رقعة جميل قديم من عمر بيروت . لم يكن هنالك ما يسترعي انتباه بشير أو يثير الفضول فيه ، فعلى الناحية المقابلة من الشارع محل مؤذن للملبوسات وطبارة والزعيم ، وكلاهما لقطع السيارات ، ومكتب كاتب عدل بيروت شادي رمال . فعدنا باتجاه الكورنيش فتراءى أمامنا عند التقاطع الرئيسي مبنى كلية خالد بن الوليد-المقاصد بألوانه الخضراء والزرقاء والحمراء وخلف المدرسة ببضعة مئات الأمتار تنتصب مئذنة مسجد الخاشقجي الشامخة . انحرفنا إلى

اليمين وأشار بشير إلى مبنى قديم صامد في مكانه . كان المبنى مكوناً من ستة طوابق ، ولا شك أنه شيّد في النصف الأول أو الربع الأول من القرن الماضي ، وطرازه الروماني ، وخاصة الشرفات والنوافذ ، يجعلك تشعر وكأنك قد انتقلت فجأة من بيروت إلى وسط روما . وبالرغم من آثار الجراح عليه إلا أنه صامد شامخ . أكملنا طريقنا باتجاه مستشفى البربير ، وهنا طلب بشير أن نجد مكاناً لركن السيارة . طبعاً لم أسأل لماذا ، فقد كان السبب واضحاً لي وربما كنت سأتفاجأ إن لم يطلب ذلك .

وما إن انعطفت يميناً إلى شارع الأوزاعي ، حتى صاح بشير مبتهجاً ، مشيراً إلى محل بن عدنان :

- انظر ، انظر ، بن عدنان! ياه ، لم أسمع هذا الاسم منذ أكثر من ثلاثين عاماً . . . وهناك ، انظر ، بن طافش أيضاً! يا الله ، كانا ملكيْ البن والقهوة في بيروت . لقد نسيتهما تماماً طوال هذه السنين ، ولكن الآن قد أعادت إليّ رائحة محلاتهم المميزة .

لم يكن هنالك مجال لي أن أرد عليه . ركنت السيارة في أول فسحة وجدتها وترجلنا منها . أراد بشير أن يعبر الشارع إلى بن طافش ، ولكنه توقف وكأنه تذكر فجأة وجود مستشفى البربير . أخذ يحدق النظر فيه وهو بين الشك واليقين من أن هذا هو مستشفى البربير الذي كان في فترة من الفترات كخلية نحل يعمل ليلاً نهاراً دون توقف . هذا المبنى الذي كان أهم

مَعْلَم في بيروت الغربية قاطبة ، نعم كان أهم معلم ، تراه اليوم ساكناً لا حراك فيه . هذا المبنى الذي طبب وأنعش وحافظ على حياة الآلاف من الناس ، لا يجد من ينعشه الآن أو أن يعيد له الحياة . يبدو وكأنه ميت موتاً سريرياً ، فلا هو بحي ولا هو بميت ، بل ربما ينتظر الضربة القاضية لتهده وتقضي عليه .

كان بشير ينظر إلى مبنى المستشفى ، وكنت أرى عينيه مغرورقتين بالدموع ، والحقيقة أنني أنا أيضاً كنت أشعر بغصة قوية . فكم لنا من ذكريات هنا ونحن نجلب الجرحى أو القتلى ، أو ما كنا نقوم به من محاولات إسعاف داخل المستشفى وخارجها . كان الجنون بعينه أثناء الاجتياح الإسرائيلي ، وكنا أنا وبشير من المسعفين القلائل المحظوظين الذين لم تنل منهم قذائف إسرائيل وصواريخها .

بقينا دقائق نمشي حول البربير ، بينما نحن نعيد شريط ذكرياتنا ، ومن ثم انطلقنا نغوص أكثر في شارع الأوزاعي الذي كان مرصوفاً بمحلات المجوهرات والصرافة على يمينه ، كالحلبي ومنيمنة وهيثم الهرش على يساره ، وغيرها إضافة إلى محلات الملابس كمحل سعيد المزرعاني .

أكملنا طريقنا مشياً حتى المفرق الثاني ، ودخلنا يساراً مروراً بكنيسة مار مخائيل ، والتي تتدلى من على سورها أزهار بهية بألوانها الليلكية والحمراء والبرتقالية تضيف جواً من البهجة ، والكنيسة ليست كبيرة إنما متوسطة الحجم من الحجر

الأبيض وقـد بدت سـاكنة في هذا الوقت المبكر من يوم السبت .

درنا وقفلنا عائدين إلى السيارة ، وعندما مرّ بشير من أمام محل بن طافش أخذ نفساً عميقاً وكأنه يتشرب قهوته من أنفه . وقبل أن نصل السيارة اقترحت على بشير أن ننطلق سيراً على الأقدام حتى يستطيع أن يستمتع بالمناظر والذكريات ، خاصة وأن الطقس ربيعي والسماء صافية من أي سحابة أو غيمة ، فرحب بالفكرة بشدة . وصلنا آخر الشارع ، وكان على يميننا محل فلافل الريس سعيد الذي لم تتح لي فرصة شراء شطيرة منه بالأمس ، عندما كنت عالقاً بالزحام وأنا في طريقي إلى بشير .

أمسكت بيد بشير وولجنا عند الريس سعيد ، وطلبت شطيرتيْ فلافل ، وانفرجت أسارير بشير على هذه المفاجأة الطيبة . عبرنا كورنيش المزرعة إلى الناحية الأخرى ونحن نلتهم الشطيرتيْن ، وما إن وصلنا الناحية الأخرى حتى كنا قد انتهينا منهما ، واقترح بشير أن نعود لشراء المزيد ولكنني وعدته بأن لا يشبّع نفسه بالفلافل فقط ، لأن الخير قادم .

وقفنا على الرصيف بالقرب من بنك لبنان والمهجر ، وتأمل بشير المبنى الذي يقع فيه محل فلافل الريس سعيد ، وأشار إلى أن هنالك أحداً يقطن فيه بالرغم من أن المبنى كله غير صالح للسكن . كان تفكيره صائباً كما فكرت أنا بالأمس ،

وسأل إن كان هذا المبنى من ضحايا الحرب الأهلية أم الاجتياح الإسرائيلي . لم أكن أعرف الإجابة ولكنني قلت إنه ربما كان ضحية هذه الحروب كلها ، بالإضافة إلى حرب أمل ضد حركة (المرابطون) . وأخذت أشرح لبشير كيف أن كل هذه المنطقة ، من البربير إلى مسجد جمال عبد الناصر ومنطقة الكولا ، إلى الجامعة العربية كانت مسرحاً لمعارك عنيفة خاضتها حركة أمل والحزب التقدمي الاشتراكي ضد حركة (المرابطون) كانت حرباً بين حركتيْن شيعية ودرزية من ناحية ، وسنيّة من ناحية أخرى . من هنا يا صاحبي انطلق المئات من عناصر أمل ، من عند البربير والنويري باتجاه كورنيش المزرعة ، ومسجد عبد الناصر ومنطقة أبي شاكر . كانت قد بدأت أمل معركتها في رأس بيروت ، ومن ثم انتقلت إلى معقل (المرابطون) في هذه المنطقة ، ولكن (المرابطون) يومها استطاعوا أن يصدوا العديد من هذه الهجمات ، وأن يثبتوا في مواقعهم . وكنت أنا يومها في زيارة لأحد الزملاء لا يبعد كثيراً من حيث نقف ، وعلقت في بيته بضعة أيام قبل أن أستطيع العودة إلى بيتنا . رأيت المعارك أمامي ، رأيت كيف يصوب عناصر أمل مدافعهم وقذائفهم ورصاصهم إلى صدر رفاق سلاح الأمس ، كانت المعارك كمعارك الاشتباك مع الجيش الإسرائيلي في الجنوب أو عند المحاور هنا . كانت أياماً عصيبة مجنونة . لم يكن أي من الناس في المنطقة يتوقع أن يحصل الذي حصل ، لم يكونوا قد

احـتـاطوا لهكـذا أمر . القـذائف تدك المنطقـة برتابة صـارخـة ، ودويها يهزك من أعماقك وتشعر بدوي القذائف البعيدة نسبياً ، وإن كـان خـفـيـفـاً إلا أنه كـالإنـذار يذكـرك بأنه هناك ، وفي أي لحظة ، قـد تكون القـذيفـة التـاليـة أمـام بنايتك ، وأزيز صليـات الرشـاشـات لا ينقطع إنما كـان يعلو ويخـفـت ليـعلو مـرة أخـرى . وقد يخفيه دوي انفجار قذيفة للحظات ما يلبث أن يعود صوت الرشاشات إلى الأسماع .

كـانت عناصـر أمل تحـاول التـقـدم جنوب الكورنيش من خـلال شـارع الأوزاعي ليلتـفوا على قـوات (المرابطون) . أتذكـر سينما سلوى؟ طبعاً تذكرها ، لم تكن تبعد إلا عشرات الأمتار من هنا ، عندمـا تقـدم عناصـر أمل من عندها انهـمرت عليـهم قذائف ورصاص (المرابطون) من خلف ظهورهم ، فقتل من قُتل وفرّ من فـر . وعندمـا بدأت الكفـة تميل لصـالح (المرابطون) قـرر وليـد جنبـلاط أن يزج بحزبه الحزب التـقدمي الاشـتراكي إلى جانب أمل ، كمـا انضم إليهم الحزب الشيوعي ، ولم يوفـروا أي سـلاح حتى إن اللواء السـادس من الجيش اللبنـاني ، والذي هو برمته من العناصر الشيعية ، كـان قد زج به لحسم المعركـة . وما هو إلا يوم أو يومـان وإذ بمنطقـة كـورنيش المزرعـة وأبي شـاكـر وطريق الجـديدة تحت سـيطرة أمل والحـزب التـقـدمي بشكل كامل .

- وكل ذلـك لأن القـائد المعظم يريد أن يصـفي حسـابات

شخصية وليستفرد بالقرار الفلسطيني .

- نعم ، مئات من القتلى وآلاف الجرحى ، إضافة إلى الدمار والكراهية والحزازيات من أجل مصلحة شخصية .

كنا نتكلم ونسير ، ويبدو أن الطقس اللطيف قد شجع بعض سكان الحي على النزول والتمشي في الشارع ، وكانت ألوان فساتين الفتيات وسراويلهن تعكس ألوان الربيع البهيّة ، ومنهن من قد ربطن شعرهن أو تركنه مسدلاً على أكتافهن . وحتى المتحجبات منهن ، كان لباسهن ينم على فرحة الربيع . وشارع الكورنيش يشجع على التمشي فيه ، وهو من أهم شوارع بيروت ، وهو بحد ذاته يلعب دور الخط الذي يفصل بين طريق الجديدة ، الواقعة إلى جنوبه ، ومنطقة رأس بيروت ، إلى شماله ، بما فيها من مناطق الحمرا وفردان والظريف والروشة والبلد . وشتان بين شماله وجنوبه ، من حيث المباني والمحلات وطبقات الناس ودخلها .

يبلغ عرض كورنيش المزرعة حوالي الأربعين متراً ، ويتألف من ثلاثة مسارات في كل اتجاه ، إضافة إلى مسار رابع كمواقف للسيارات ، وتتوسط الاتجاهين جزيرة وسطية عرضها عدة أمتار مزروعة بالأعشاب والشجيرات وأشجار النخيل . والكورنيش محفوف ببنايات أغلبها ما بين الخمسة والسبعة طوابق ، بُنيت في الستينيات والسبعينيات من القرن الماضي ، وأخرى أحدث من ذلك تتجاوز العشرة طوابق . وما إن تترك الكورنيش وتدخل

أياً من الشوارع الجانبية إلى جنوبه ، فسرعان ما تظهر لك البنايات القديمة ، والتي الكثير منها متهالك .

كنا قد أصبحنا عند محل الديماسي للملبوسات عندما أمسك بشير بذراعي سائلا :

– أين سينما بيروت؟ ألسنا قريبين منها؟

– يا إلهي ، ألا تزال تذكر سينما بيروت؟ أعتقد أنك على حق ، هي لا شك قريبة من هنا ، ولكن بصراحة لا أعرف أين بالضبط ، فلم أزرها منذ أيام الاجتياح . فلنسأل هاتيْن الفتاتين .

كان هنالك فتاتان تقفان بالقرب من محل ملك الروستو ، إحداهما متزينة بالحجاب والأخرى بتنورة فوق الركبة وبلوزة الغرض منها إبراز مفاتنها عوضاً عن إخفائها ، وقبل أن أصل إلى أولاهما لأسألها كان بشير قد قرر أن يسأل ذات المفاتن . قدم نفسه على أنه مغترب ويحاول أن يستعيد ذكريات الماضي ، وسأل إن كانت تعرف مكان سينما بيروت . التفتت إلى صديقتها والتي بدورها أشارت إلى المبنى المقابل وقالت إن ذاك هو سينما بيروت . شكلاً كان المبنى كما هو بتدرجه الخارجي ، والذي كان أيضاً منعكساً من الداخل داخل صالة العرض عندما كان لا يزال سينما . ولكنه أصبح الآن بأكمله محل ملابس وأحذية ، وكأن بيروت ينقصها المزيد من محلات الملابس والموضة . لا أذكر ما كان لون المبنى من الخارج عندما كنت صغيراً ولكن بلاطاً رمادياً غامقاً الآن يغطي جزءاً كبيراً

منه ، بينما جزء آخر مغطى بالبلاط الرمادي الفاتح . توقفنا عند السينما قليلاً نستعيد ذكريات الطفولة والشباب ، عندما كان الذهاب إلى السينما شيئاً رهيباً . وطبعاً كان لا يزال يرن في آذاننا صوت بائع الكولا داخل السينما وهو يضرب بالمفتاح زجاجات الكولا والسفن آب والجلول!

- والله كانت أيام جميلة تلك يا بشير ، بالرغم من التوتر الدائم والاشتباكات المتفرقة ، إلا أنها كانت أياماً رائعة .

- والله معك حق ، والرائع أيضاً كان أبو خضر الذي كنا نرتاده أحياناً قبل أو بعد عرض السينما . آخ على شاورمة أبي خضر ، والبطاطا المقلية . يا الله ما ألذها . هيا بنا إليه نعيد تلك الذكريات .

أمسك بيدي لنتحرك ، ولكنني قلت له إنه لم يعد هناك أبو خضر ولا أم خضر ولا حتى خضر . لقد انتهى عصر أبي خضر وأصبح مكانه الآن محل فروج اسمه مايسترو فروج! كان واضحاً على وجه بشير علامات الاستغراب والأسى والاستياء ، بعد أن وعد نفسه بوجبة شهية من الشاورما والبطاطا المقلية .

- لا يهمك يا بشير ، سأطعمك لحمة بالعجين بعد قليل ، وستشرب ما لم تشربه منذ أكثر من ثلاثين سنة . هيا بنا .

- لحظة ، لحظة . . . ألم يكن صديقنا مازن عبد الله يسكن هناك في تلك البناية؟

- أين يا بشير؟
أشار بإصبعه إلى الناحية الأخرى من الشارع وقال :
- هناك في تلك البناية مشمشية اللون فوق محل «روزيت جورج» .
- لا أرى شيئاً!
- يا أخي ، أترى تلك اليافطة الكبيرة البيضاء والمكتوب عليها «محل أبو عمر» ، قبلها تماماً يافطة زهرية مكتوب عليها «روزيت جورج» ، وقبلها يافطة «فاشِن إليت» بالأحرف اللاتينية .
- آه ، نعم ، نعم ، الآن رأيتها .
- وكان مازن إن لم تخنّي الذاكرة يسكن فوقها على الطابق الثالث أو الرابع . . .أو ربما الخامس .
- ما شاء الله ، ذاكرتك لا تزال قوية . أما أنا فقد نسيت مازن والذين خلّفوا مازن .
استمررنا بالسير على خط كورنيش المزرعة ، ولفتت نظر بشير يافطات في أحد الأزقة الجانبية ، حيث يقع ديسكوتيك ميوزيك . كانت اليافطات معلقة فوق الزقاق من أيام شهر رمضان وكانت إما مبشّرة بالشهر الكريم أو تحض الناس على الصوم على ما فيه من فضل ومغفرة .
- ياه ، لقد حافظوا على هذه التقاليد! هذا رائع . . . أتدري ، ربما علينا أن نعتبر ذلك نوعاً آخر من الفنون الشعبية .

انظر إلى الخط الجميل والألوان المستخدمة . ربما نسميه فن اليافطات!!

لم يكن تعليقه مزاحاً بل كان جاداً ، وكأنه يفكر بجد أن يدرس تلك الظاهرة . ما هي إلا لحظات أخرى ووصلنا عند محل محي الدين للسيارات ، وبضع خطوات وأصبحنا أمام محل غلاييني للمعجنات ، والذي يصنع المناقيش بأنواعها واللحم بالعجين ، وقد كانت رائحة المعجنات تملأ الرصيف وتجعلك لا تقاومها . انفرجت أسارير بشير عن فكرة اللحمة بالعجين ، وكنت أرى لعابه يكاد يسيل ، وازداد انفراج أساريره عندما طلبت له علبة عصير «بون جوس» ، وأخذ يضحك من صميم قلبه . جلسنا على كرسيين لنرتاح قليلاً بينما نتناول معجناتنا ، وبسبب المقاعد المحدودة في المحل ، اضطررنا أن نشارك طاولة مع شابيْن وسيمين ملتحيين يبدو أنهما يعملان في أحد المكاتب القريبة ، حيث إنهما كانا يلتهمان طعامهما بسرعة قبل أن تنتهي فرصة غدائهما . كانت جلسة طريفة أعجبت بشير ، إذ كانت الكراسي خشبية قديمة مقاعدها من القش البني ، وطاولة متوسطة الحجم من البلاستيك . فجلسنا وكلانا ينظر حوله مستعيداً ذكريات الطفولة في هذا الشارع .

-١١-

لم يشعر فارس وبشير أن هنالك من يتتبعهما منذ أن كانا يسيران في شارع الأوزاعي . كان نجيب قد ترك الحمرا مع مسدسه ، ومن خلال التطبيق على هاتفه حدد موقع بشير وانطلق خلفه . لم يكن مستعجلاً للقضاء على بشير ، فهو يريد أن ينفذ مهمته بإتقان حتى ينال منه ، إذ كان يدري أن هذه الفرصة الفريدة لن تتكرر أبداً ، فإن اكتشف أمره فسوف يلقون القبض عليه وسينال من العذاب الضعفين ، وإن أصاب بشير إصابة غير قاتلة ، فإن بشير سيعود في النهاية إلى أمريكا ولن يستطيع أن يصل إليه إذاً أبدا . ولذلك كان يتريث حتى يحصل على فرصته ، فقد بقي نجيب في سيارته يتابع بشير وفارس عن بعد ، وكان كلما أصبحا على مسافة تتعذر معها رؤيتهما بالعين ، حرّك سيارته ليتوقف بعدها في مكان أقرب .

وعندما جلس فارس وبشير ليتناولا اللحمة بالعجين أمام محل الغلاييني ، أدرك أن هذه هي فرصته التي ينتظرها . فهما الآن جالسان مما يسهل عليه استهدافه . تقدم نجيب بسيارته وتخطاهما ، وعند أول تقاطع استدار بسيارته ليعود بالاتجاه المعاكس وليكون بمحاذاة الرصيف الذي يجلسان عليه . وما إن

أصبح قبلهما بمسافة عشرة أمتار أو أكثر قليلاً أوقف سيارته على طول الرصيف ، مواجهاً فارس وبشير . رفع الظرف القابع على الكرسي المجاور له ، وأخرج منه المسدس ، وقام بتركيب كاتم الصوت عليه . . . سحب مخزن الرصاص من المسدس ليتأكد مرة ثانية من وجود الرصاص ثم أعاده في مكانه . نظر نجيب إلى الرصيف والبنايات المجاورة وتأكد من أن أحداً لا يراقبه ، فرفع المسدس وجعل فوهته ما بين نافذة باب سيارته والمرآة الخارجية حتى لا يراه أحد ، وأحنى رأسه خلف المسدس وصوّب على صدر بشير . وما هي إلا ثوان وضغط الزناد لتنطلق رصاصته باتجاه بشير .

لم تقتل الرصاصة بشير ، ولا حتى أصابته بل أخطأته وأصابت إحدى إسطوانات الغاز الفارغة التي كانت تزود الفرن بالوقود . ولحسن الحظ لم يكن انفجار الإسطوانة كبيراً أو كارثياً . . . مجرد اسطوانة انفجرت واشتعلت بها نار خفيفة . هرع صاحب المحل ليطفئ الحريق الصغير الذي اندلع من فوهة الاسطوانة ، بينما تفرق شمل كل من كان جالساً أو واقفاً بالقرب من المحل ، ولم يكن أحد من الناس يدري أن رصاصة أصابت الإسطوانة بل خمّنوا أن الانفجار نتج عن طريق خلل أصاب الإسطوانة .

-١٢-

انفجرت أسطوانة غاز خارج المطعم ، حيث كنت وبشير نأكل اللحمة بالعجين ، فقفزنا من أماكننا ودخلنا المحل المجاور حتى نعرف ما الذي حصل . وما هي إلا لحظات حتى تبيّن أنها مجرد أسطوانة غاز قديمة .

- والله يا فارس للحظة اعتقدت أنني أيام الحرب ، وأن القصف العشوائي بدأ!!

ضحكت على ما قاله وقلت :

- أتدري ، اعتقدت أنها عملية تفجير إرهابية ، وظننت أنني هالك لا محال!

وقفنا في مكاننا لبضع دقائق حتى نطمئن أن الأمور على ما يرام ، وأنه لم يُصب أي شخص ، فقررنا الاستمرار برحلتنا على الأقدام إذ إننا كنّا قد انتهينا من وجبتنا على أي حال .

- نحن لا نبعد سوى مسافة قصيرة عن مسجد عبد الناصر ، فهذا يعني أننا اقتربنا من شارع أبي شاكر ومركز (المرابطون) .

- صحيح يا بشير ، وهذه المنطقة كانت قد شهدت أشد

المعارك بين أمل والحزب الاشتراكي من جهة ، والمرابطون من جهة أخرى .

- ولكن ، قل لي يا عزيزي ، ماذا كان الهدف من هذه المعارك؟ كيف يصير حليف الأمس عدوك وأكثر من عدوك؟ لا أعتقد أنها قضية نفوذ فقط .

- كلامك سليم ، يا بشير . هنالك الكثير من القال والقيل والنظريات ، ولكن أعتقد أن الأقرب إلى المعقول أن أمل تحركت بأوامر من حافظ الأسد . فحافظ الأسد كان دائماً يسعى إلى التحكم بالورقة الفلسطينية وبالقرار الفلسطيني ، ولذلك هو حارب عرفات وحركة فتح والمنظمة بشكل عام . وحتى المنظمات التي كانت موالية له ، كالجبهة الشعبية والديمقراطية ، فلم يكن يسمح لهم بالانطلاق من الأراضي السورية . المهم ، أن همّ حافظ الأسد كان التفرد بالقرار الفلسطيني ، وكما قد تعلم ، فإن فتح والمنظمات الأخرى حاولت العودة إلى مخيمات بيروت ، ابتداءً من عام ١٩٨٣ بعد خروج الجيش الإسرائيلي . وإن نجح الأسد بطرد عرفات من طرابلس عام ١٩٨٣ بعد معارك ضارية ، إلا أنه كان يدرك أن الوضع في بيروت مختلف . فبيروت ليست كطرابلس . لم يكن في طرابلس إلا المقاومة الفلسطينية ، والتي كانت ضعيفة نسبياً بسبب الاجتياح الإسرائيلي وخروج معظم كوادرها من لبنان مثلما كان قد تم الاتفاق عليه في آب ١٩٨٢ ، فكان من السهل على الجيش

السوري والمليشيات الموالية له أن تكسر شوكة عرفات في طرابلس . أما في بيروت ، فهنالك قوة سنيّة موالية للمقاومة الفلسطينية لا يستهان بها ، وهي حركة (المرابطون) إضافة إلى سكان بيروت السنّة وخاصة سكان منطقة طريق الجديدة . وكان يدرك الأسد وغيره أنه لو ضرب المخيمات الفلسطينية لما سكتت حركة (المرابطون) والغالبية السنيّة ، ولتدخلوا لصالح المخيمات وعرفات ولأفشلوا هدف الأسد . فلذلك كان من الأجدى أن يتعاملوا مع (المرابطون) ويكسروا شوكتهم قبل أن يديروا المعركة ضد المخيمات الفلسطينية الموالية لعرفات ، والتي كان نفوذه فيها يزداد يوماً بعد يوم . وهنا التقت مصالح نبيه بري زعيم حركة أمل مع مصالح حافظ الأسد ، فحافظ الأسد يريد كسر (المرابطون) حتى يصل إلى مبتغاه وهو كسر عرفات في المخيمات ، ونبيه بري يريد أن يضع يده على بيروت الغربية برمتها وأن يكون هو وحركته الآمر الناهي فيها . وتصرفت أمل بأوامر حافظ الأسد . وعندما بدأت أمل المعركة ضد (المرابطون) وفشلوا أن يحطموهم ، فأَعتقد أن الأسد طلب من وليد جنبلاط والحزب الشيوعي التدخل إلى جانب أمل ، إضافة إلى اللواء السادس من الجيش اللبناني . وبذلك انتهت المعركة لصالح أمل ومن معها . وما هي إلا بضعة أيام حتى توجهت أمل ومن معها إلى مناطق الفلسطينيين في صبرا ومخيمي شاتيلا وبرج البراجنة لتحاصرها ، ولتقصفها ، ولتنكل بها وبسكانها أشد

التنكيل . ما قامت به أمل واللواء السادس كان فظيعاً يا بشير . لقد ذبحوا أطباء وممرضات ، وقتلوا بدم بارد الجرحى من الأبرياء ، وبعد أن تم تدمير أكثر من ٦٠٪ من المخيمات بالقصف ، قامت جرافاتهم بمسحها وتسويتها مع الأرض .

- يا الله ، كل هذا من أجل التحكم بالقرار الفلسطيني؟

- نعم ، ولكن انقلب السحر على الساحر في تلك الحرب . فالمنظمات الفلسطينية التي كانت داخل المخيمات وكانت موالية لسوريا ، والتي كان الأسد يعوّل عليها وعلى أنها ستقاتل الجماعات العرفاتية ، تحركت تلك المنظمات بعكس ما كان يشتهيه الأسد . فوقفت مع القوى الفلسطينية الأخرى وقاتلت حتى الشهادة ضد أمل واللواء السادس . وبعد أن افتضحت أهداف حافظ الأسد ، رحلت معظم قيادات تلك المنظمات التي كانت في يوم من الأيام محسوبة على النظام السوري ، رحلت من سوريا . فلقد أدركت القيادات تلك أن حافظ الأسد هو وزمرته يقاتلون وبشتى الوسائل والطرق الوجود الفلسطيني برمته وليس الصعود العرفاتي فقط .

- ولكن ألم تدَّعِ أمل أن الهدف كان هو فقط وقف التسلح الفلسطيني؟

- لا يا أخي ، كانوا ينفذون أوامر الأسد بالقضاء على استقلالية القرار الفلسطيني ، وكل ما له صلة بالوجود الفلسطيني المستقل . كيف تُفسر إذاً اعتقال المئات من

الشخصيات الفلسطينية غير العسكرية والسياسية . مئات من المهنيين الفلسطينيين ورجال الأعمال والمربين وُضعوا في أسوأ السجون والزنازين فقط لأنهم فلسطينيون . وفي الوقت نفسه كانوا يريدون الهيمنة على ما كان يُعرف في ذلك الوقت ببيروت الغربية أي السنيّة ، والتي كانت تُدين الولاء للمرابطون .

وقبل أن يردّ عليّ بشير كان قد تحرك باتجاه محل مجاور يبيع الصحف ، وكانت لديه صحف السفير والشرق الأوسط والديار والمستقبل والنهار . اشترى نسخة من كل الصحف المختلفة ووقفنا نتصفحها بشكل سريع ، بحثاً عن أي تغطية عن المعرض ، وقد كانت معظم تلك الصحف قد احتوت على مقال عن المعرض ، مما أفرح بشير وانفرجت أساريره لذلك .

كنّا على بضعة أمتار من مسجد جمال عبد الناصر ، وكانت أبوابه مقفلة كالعادة في غير أوقات الصلاة ، ولكن بشير وقف أمامه يرقبه وسأل إن كان لا يزال كما عهده في أيامه ، ولم أستطع أن أؤكد أو أن أنفي . ولكن يا عزيزي بشير ، أدري بأنه قد حُطّمت أجزاء منه وحرقت أجزاء أخرى من قبل عناصر أمل ، ولا أدري إن تمّت إعادته على ما كان عليه .

- يا أخي ، حتى المساجد لم تسلم من هذه الحروب؟

- لا يا بشير ، في كل معركة كانت تقوم ، كان هذا الفريق يدمر لذاك الفريق ما استطاع أن يضع يده عليه من مساجد أو

كنائس أو معابد أو مؤسسات ، بغض النظر عن هذا الفريق ومن ذاك . وعندما تدور الدائرة ، يُفعل فيه كما فعل هو بغيره . أي كما تُدين تُدان .

- والله شعب لا يتعلم ولن يتغير .

كان بشير لا يزال يتأمل المسجد المكسو بالحجارة البيضاء الضاربة للبيج قليلاً وبمئذنته ذات الأدوار الأربعة والمتوجة بقبة خضراء . والمئذنة يبدو أنها على الطابع العثماني أو حتى مثل بعض المآذن في مكة المكرمة . وأخذ بشير يتأمل ملصقات لصور جمال عبد الناصر وإبراهيم قليلات على جدران المسجد البيضاء ، وقد علّق بشير بأنها صور جمال عبد الناصر نفسها التي كانت تُلصق على شوارع بيروت في السبيعنيات من القرن الماضي ، وكان تعليقه في محله ، فهي نفسها حيث تُبدي رأس عبد الناصر وحتى كتفيه ، والصورة مأخوذة من جانبه الأيسر وتُظهر ثلاثة أرباع وجهه ، ويظهر في الصورة وهو مرتد بدلة سوداء .

-١٣-

في الوقت نفسه الذي انفجرت فيه أسطوانة الغاز كان أمين ومسؤول الحزب وآخرون قد انتهوا من مراجعة معلوماتهم ووضع خطة لخطف نجيب إذ يريدونه حياً . وما إن انتهوا من الخطة وتحديد الأدوار حتى انطلقت سيارتان عاديتان وسيارة للأمن العام يقودها أمين كتمويه ، واتجهت السيارات الثلاث إلى منطقة كورنيش المزرعة ، حيث أشارت الخرائط إلى مكان تواجد نجيب . كان المطلوب هو محاصرة نجيب ثم خطفه من على الرصيف والعودة به إلى مقر الحزب .

وعندما انفجرت أسطوانة الغاز ، سقط قلب نجيب إلى الأرض ونشف الدم في عروقه ، وظن أن أمره قد أُكتشف فرمى مسدسه على أرض السيارة لينطلق بعيداً عن المكان ، إلا أنه سرعان ما قدّر أن الناس بمن فيهم بشير قد ظنوا أن الانفجار ما هو إلاّ حادث عابر وليس نتيجة طلق ناري أو غيره . فانطلق بسيارته بهدوء كي لا يلفت الانتباه إليه ، وتحرك باتجاه مستشفى البربير حتى يتسنى له أن يلف ويعود لمتابعة بشير . وما هي إلا دقائق وكان قد عاد بالاتجاه الآخر ، فأوقف سيارته على جانب الشارع وأطفأ محركها فقد قرر أن يفكر بخطة

أخرى للنيل من بشير . كان لا يزال يرتعش من الخوف الذي أصابه عندما ظنّ أن أمره قد اكتشف ، وكانت يداه لا تزالان ترتعشان على مقود السيارة وخفقان قلبه يصل حتى أذنيه . . . .كان متوتراً ، ولذلك قرر أن يقف حتى يتسنى له التفكير بهدوء وليضع خطة محكمة لا تثير الشبهات .

كان لا يزال يتابع مكان بشير من خلال التطبيق على هاتفه المحمول ، وكان متوقفاً عند تقاطع كورنيش المزرعة وأبو شاكر ، وما هي إلا لحظات حتى أظهرت الخريطة تحرك بشير وانعطافه يساراً على شارع أبو شاكر . فكّر نجيب في خطة سير بشير ، وقدّر أنه لا شك ذاهب باتجاه الجامعة العربية ، وأنه سيستمر ماشياً في شارع أبو شاكر حتى يصل الجامعة العربية ، أو أنه سينعطف يميناً إلى شارع عفيف الطيبي ومنه إلى الجامعة العربية . كانت تبدو الأمور واضحة لنجيب ، فقرر أنه إن سار بشير في شارع عفيف الطيبي ، فستكون هذه فرصته من النيل منه . وهذه المرة سيمشي خلفه وسيضع مسدسه في ظهر بشير ويشبعه رصاصاً ، كما سيطلق النار على فارس حتى لا يكون هنالك أي شهود .

لم يضيّع نجيب لحظة بعد ذلك ، فأدار محرك سيارته وانطلق إلى شارع عفيف الطيبي ، والذي كان مكتظاً بالسيارات مما أدى إلى أزمة فركن سيارته . كان نجيب محظوظاً بإيجاد مكان شاغر لركن سيارته ، ولكن المشكلة كانت تكمن في

إمكانية ركنها في هذا الزحام ، ولكنه كان مستميتاً ألاّ يفوّت على نفسه هذا المكان المثالي . فاستطاع أخيراً وبعد مشقة وخلق زحام فوق زحام أن يركن سيارته . . . وجلس ينتظر ويدرس المنطقة ويضع خطة فراره من خلال الشوارع الجانبية .

-١٤-

انحرفت أنا وبشير إلى اليسار لندخل شارع أبي شاكر ، ومشينا بضعة أمتار ، وكنّا قد أصبحنا أمام دخلة صغيرة على اليسار ، والتي تشير إلى مركز (المرابطون) . لم يكن يظهر منه شيء ، ولولا أن تلمح صدفة اليافطة التي تشير إلى المركز لكنت تمر من أمامه دون أن تشعر . هنالك بضع شجرات في بداية الشارع والتي تضفي نوعاً من الجمالية ، ولكن جمال الشارع ربما يعود إلى تناسق عرضه وارتفاع المباني ، أو بسبب الصعود الخفيف الذي يقابلك من أوله وربما كل هذه الأسباب مجتمعة ، إضافة إلى أنه هادئ بالرغم من مرور السيارات فيه . ولعله الشارع الوحيد في بيروت كلها الذي لم أسمع به صوت زمور سيارة واحدة . لا يزال مزيناً بأهلة رمضان وفوانيسه . فكل بضعة عشرات الأمتار هنالك هلال كبير معلق منه فانوس ملون وعليه عبارات موعظة ، فمنها ما يقول «قال الرسول عليه الصلاة إياكم والكذب» أو «مهما تصورت ببالك فالله لا يشبه ذلك» ، وغيرها . وكانت هذه الفوانيس والعبارات تضيف جواً خاصاً تجعلك تشعر وكأنك في رمضان .

وأما سكان الشارع بشكل عام ، فقد بدوا وكأنهم كلهم هم من سكنوا هذه المنطقة منذ بدايتها ولم يغادروها . فمعظم الذين قابلناهم في الشارع كانوا فوق سن الخمسين ، نساء ورجالاً ، وإن كان هنالك بعض الاستثناءات . ولكن معظم النساء والشابات كن متحجبات والرجال متواضعون بلباسهم ، وإن كان يبدو أن كثيراً منهم لم تمس الموسى ذقنهم منذ أيام . وكانت صور إبراهيم قليلات وعبد الناصر معنا حتى نهاية الشارع .

استوقفني بشير وسأل :

- من هو الأشقر؟ الآن تذكرت أنني قرأت عن أحد عناصر (المرابطون) والذي قتله الحزب الاشتراكي كما يبدو . ألم يكن من هذه المنطقة؟

لم أكن قد سمعت اسم الأشقر يتردد في أذنيّ منذ دهر ، ولكن بعد ثوان قليلة بدأت تتجمع الصورة مرة ثانية في مخيلتي وبدأت تترتب المعلومات مرة أخرى في ذهني .

- نعم ، ولا يا بشير . الأشقر وأعتقد أن اسمه الحقيقي هو حسن ماجد كان عضواً في (المرابطون) وكان قائداً لقواتها في بيروت ، لكنه لم يكن من هذه المنطقة بل كان شيعياً من خربة سلم في النبطية . نعم ، كان شيعياً مع (المرابطون) . . . لم تكن هنالك خطوط حمراء لتحول بين الانتماء لحزب أو حركة ما . ما يهم هو الإيمان بمبادئ الحركة . لا خطوط حمراء .

- لو كانت وظائف حكومتنا بدون خطوط حمراء لكنا بألف خير .

- ما فهمت ، ماذا تقصد؟

- ألا ترى الخطوط المرسومة وغير المرسومة في دستورنا ، حيث إن الرئيس يجب أن يكون مسيحياً ، وليس أي مسيحي بل ماروني ، ورئيس الحكومة يكون مسلماً سنياً ولا غير ذلك ، ورئيس البرلمان محجوز لشخصية شيعية . ألا ترى هذا كله خطوطاً تفصل بين هذا وذاك؟

- آه ، نعم ، كلامك سليم ، يا بشير . إنها بالفعل كذلك .

- طيب ، كان الأشقر شيعياً ، ولكن من قتله؟

- أعضاء من الحزب الاشتراكي ، كما كان قد قيل ، هم من نفذوا عملية الاغتيال .

- ولكن لماذا؟ هل كان التخلص من القيادة هو الخطوة الأولى للتحضير للسيطرة على بيروت الغربية فيما بعد؟

- الله أعلم ، يا بشير . ولكن المؤسف والمؤلم هو كيف يستطيع حزب يدعي الوطنية أن يغتال مناضلاً قاتل العدو الإسرائيلي طوال حياته ، وبالأخص أثناء اجتياح ١٩٨٢ ، وقد لقن شارون وجيشه دروساً عدة عند محور المتحف والطيونة . أذاقهم المرّ والعلقم وما هو أمرّ . حتى إن الجيش الإسرائيلي كان ينادي عليه بمكبرات الصوت باسمه طالباً منه أن يسلم نفسه أو أن ينسحب . كم مرة سمعت يا بشير عن جيش بأكمله ينادي

مقاتلاً باسمه؟ ولكن الأشقر لم ينسحب من بيروت ، بل شارون وجيشه هم من انسحبوا . وفتك الأشقر بأكثر من خمس عشرة دبابة وآلية إسرائيلية ، عدا الجنود . ولكن كل هذا لم يكن كافياً له فحتى قبل وبعد انسحاب الجيش الإسرائيلي ، قام بعدة عمليات نوعية ضد القوات الكتائبية ، فهاجمهم وأسيادهم في بيروت مدمراً موقعهم الذي استحدثوه في مكتب منظمة التحرير الفلسطينية عند الكورنيش . ولكن للأسف ، قام حلفاء الأمس بقتله فقط لأنه لبناني وطني أنزل بالعدو الصهيوني الهزائم أينما كان تواجده .

وصلنا نهاية شارع أبي شاكر ، والذي ينتهي عند مركز الإطفائية والملعب البلدي ، ووقفنا عند مفترق الطريق المؤدي إلى الجامعة العربية من أمام الإطفائية ، وبمحاذاة الملعب البلدي وشارع محمد فاخوري المؤدي إلى الكولا . وقفنا نتذكر أيام الطفولة عندما كنت أسكن أنا وعائلتي عند الكولا . سكنّا هناك بضع سنين قبل الانتقال إلى رأس بيروت ، وكم قضينا أنا وبشير من وقت نتمشى في منطقتنا هذه عندما كان يزورني في العطل الأسبوعية والصيف . لم أكن أنتظر بشير ليقترح أن نتمشى في شوارع منطقة بيتنا القديم ، فقد كنت تواقاً لأفعل ذلك إذ لم أحضر إلى هذه المنطقة منذ فترة طويلة .

- لنذهب أولاً عند محل البوظة الذي يقع مقابل الملعب البلدي ، وكان يبيع البوظة في الصيف ويبيع حلوى الشعيبيات

أثناء فصلي الخريف والشتاء . أتذكره؟

- ومن ينسى أمسيات الشتاء الباردة عندما تمرّ سيارة المحل وهي تجوب الشوارع وصوت السائق يلعلع بمكبر الصوت قائلاً : «شعيبياتنا كتير طيبين ، طازة وسخنين ، القطعة بعشر قروش ، والدزينة بمئة وعشرين» و«كبروا الجاطات تنكتر القطرات» .

ضحكنا على تلك الذكرى وترحمنا على تلك الأيام الرائعة وعلى أيام الخير عندما كان للعشرة قروش قيمة . وطبعاً من منا ينسى أصابع البوظة التي كان يبيعها المحل نفسه في الصيف ، وكانت على ألوان مختلفة ، منها الفستقي والفريز (الفراولة) والحليب والشوكولا . كانت بحجم الكف مثبتاً بأسفلها عود خشب للإمساك بها . كنا نستمتع بمص إصبع البوظة المثلج حتى نمتص كل ما فيه من لون ولا يبقى سوى الثلج الصافي .

- ولكن يا بشير ، لقد انتهى هذا المحل ولم يعد له وجود من عشرين سنة .

- ياه ، هذا فعلاً شيء مؤسف . كان جزءاً من فلكلور بيروت وبالأخص هذه المنطقة .

تمشينا أمام مركز الإطفائية بمرائبه الخمسة وسياراته الحمراء الجاثمة داخله . لربما هذه أول مرة في حياتنا نرى أكثر من سيارة أو سيارتَيْن داخل المرآب . فطوال فترة السبعينيات وحتى التسعين ، كانت السيارات تطير من مكان إلى آخر لإخماد

حريق ، أو إسعاف من نجا من قصف أو تفجير . والبنايات المحيطة بمركز الإطفائية لا تزال تَعرِض على جدرانها آثار الرصاص وكأنها تؤكد ذكرى تلك الحقبة .

ومضينا نستكشف المنطقة شارعاً شارعاً ، وكان هنالك الكثير من القصص التي مررنا بها في كل شارع وناصية . ولكن أكثرها مأساوية كان عندما ذهبت مع والدي إلى قرب فرن يبعد بضعة شوارع عن هنا ، وكان قد قصف قبلها بربع ساعة بقذيفة هاون في بداية الحرب الأهلية ، حيث كان استهداف الأفران عملاً يومياً من الطرفين . عندما وصلنا إلى مكان الفرن كانت الجثث قد نُقلت إلى المستشفى ، ولكن الدماء كانت لا تزال تصبغ الشارع وكان الناس يصبون الماء على الشارع ، وأرض الفرن حتى تمّحي آثار المأساة . ولكن بقيت في ذهني صورتان الأولى وهي قطع لحم صغيرة علقت على حائط الفرن ، وقطعة من دماغ أحد الضحايا كانت لا تزال تنطق بما قد حدث . والصورة الثانية وهي كيف أن الناس قد صفّوا أحذية وشباشب الضحايا كطريقة للتعريف على من كان هنا من الضحايا . تصوّر أن يكون المرء شخصاً له كيان وبنيان واسم وتاريخ ، كيان وشكل تميزه بهما عن الآخرين ، واسم يميزه عن الآخرين ، وتاريخ وعطاءات تميزانه عن غيره . . . وفي لحظة يتحول إلى فردة حذاء لتدل عليه . . . . . تناقض ما بعده من تناقض .

قررنا أن نسير في شارع محمد فاخوري حتى الكولا ، فكم مشينا في هذا الشارع ونحن صغار . ولكن الأمور كانت قد اختلطت على بشير . فلم يعد هنالك وجود للمحمصة الذهبية عند تقاطع محمد فاخوري وعفيف الطيبي ، ولكن بن ماجد طافش لا يزال هناك . مضينا نزولاً حتى وصلنا إلى ما كان معمل الكولا في يوم من الأيام ، وهو الآن بناية ضخمة ومحلات تزين محيط المربع . وربما تتميز هذه المنطقة بأن كل مبانيها تقريباً بنيت في غضون عشر سنوات من بداية الستينيات وحتى بداية السبعينيات ، وكلها تتكون من ستة طوابق أو سبعة . وكل مربع يحتوي على أربع بنايات كل بناية تطل على تقاطع شارعيْن وتلتقي على فراغ وسطي بين الأربع بنايات ؛ ليوفر دخول الهواء والشمس للغرف الداخلية . أما واجهات البنايات فبها شبابيك كبيرة وشرف متفاوتة الأحجام . لمّح بشير أنه لم يكن هنالك الكثير من المحلات على أيامنا بخلاف الآن حيث كثرت بشكل كبير ، وكان محقاً . بالرغم من أن المنطقة من الكولا وحتى الإطفائية إلى الجامعة العربية كانت مبنية بالكامل مع بداية السبعينيات ، مما يعني أن عدد سكان هذه المنطقة لم يتغير كثيراً ، إلا أن عدد المحلات قد زاد بنسبة خمسين بالمئة ، والكثير منها محلات ملابس وهو أمر لافت للنظر .

وعندما وصلنا نهاية شارع محمد فاخوري عند الكولا نظر

بشير إلى البناية على يسارنا ، والتي هي آخر بناية في الشارع وتطل على جسر الكولا ، نظر إلى الحانوت أسفلها وعرفت أنه كان يتوقع أن يرى محل بزلميط للمفروشات ، ولكنه تفاجأ كما تفاجأت أنا أيضاً أنه أضحى محل الماهر للخردوات . مَعْلَم آخر ، على الأقل بالنسبة لنا عندما كنّا أطفالاً ، كنّا نعتبره مَعْلماً ، فها هو معلم آخر يتبخر من الوجود . كان إسم بزلميط بالنسبة لنا مضحكاً وله رنة غريبة ، وأحياناً نشعر وكأنها شتيمة ، ولكن الاسم كان يعجبنا على أي حال . كما كان هنالك زميلان لنا يسكنان في البناية نفسها ، أحدهما لبناني وكان اسمه علي والآخر فلسطيني واسمه نبيل . أردنا أن نصعد لنرى إن كانا لا يزالان في البناية نفسها ، أو على الأقل أهلهما ، ولكننا أجلنا الفكرة ليوم آخر .

لم يكن وجود سكان فلسطينيين في هذه المنطقة غريباً ، صحيح أن الغالبية العظمى من السكان هم لبنانيون بيروتيون (أو بيارتة) وسنيّون ، إلا أن وجود فلسطينيين كان قليلاً نسبياً ثم نما عددهم مع بداية السبعينيات . والسبب قد يعود إلى عاملين أساسيين ، فمع بداية السبعينيات ومجيء الثورة الفلسطينية إلى الساحة اللبنانية ، حصل الفلسطينييون على حقوق مدنية أكثر . والمقصود بالحقوق المدنية ليس حقوقاً فوق حقوق أهل البلد ، بل حقوقاً تأخذهم إلى مرتبة أقرب إلى أبسط حقوق الإنسان . فمنذ لجوئهم وحتى الستينيات كانت الغالبية

العظمى من الفلسطينيين من سكان المخيمات ، ولم يكن يُسمح لهم بالسكن خارجها ، بل لم يكن مسموحاً لهم التنقل من منطقة إلى أخرى بدون تصريح من المكتب الثاني (الأمن أو المخابرات اللبنانية) . والبقاء خارج المخيم إلى ما بعد المغرب يحتاج إلى تصريح أيضاً . وكان دق مسمار في حائط يُكلف رب العائلة يوماً أو بضعة أيام في السجن . وإن ضُبط فلسطيني يستمع إلى صوت العرب على المذياع ، فسجن وضرب وتعذيب . كانت بالفعل حياتهم كالجحيم في المخيمات إلى أن بدأوا يحصلون على حقوق أكثر وأكثر منذ اتفاق القاهرة عام ١٩٦٩ .

– لماذا عُومل الفلسطينيون بهذه الطريقة يا بشير؟ جاؤوا لاجئين لا حول لهم ولا قوة وسُكّنوا في أوضاع مزرية ، وفوق ذلك كان الذل ينصب عليهم من المكتب الثاني . لم أفهم الأسباب في يوم من الأيام .

– وأنا نفسي لا أملك الجواب القاطع ، ولكن لا تنسَ أن كميل شمعون كان رئيساً بدءاً من ١٩٥٢ ، ومواقفه من القضايا العربية وبالأخص الفلسطينية كانت معروفة . والرئيس يُنصّب من يشاء في كل المناصب الحساسة حتى ينفذوا أجندته . لا أعرف رئيساً لبنانياً آخر جزّأ ورسّم خطوطاً وحدوداً بين فئات الشعب نفسها ، وحتى بين الشعب اللبناني وبقية العرب أكثر من كميل شمعون .

- على أي حال ، فمع اتفاق القاهرة ومن ثم مجيء الثورة إلى لبنان في بداية السبعينيات ، أخذت الثورة من منطقة طريق الجديدة مركزاً لمعظم مكاتبها وقياداتها ، بالإضافة إلى حي الفاكهاني . وهذا ما عزز زيادة عدد السكان الفلسطينيين .

- إن اختيار الثورة الفلسطينية منطقة طريق الجديدة كمنطقة لمكاتبها لم يكن اعتباطياً أو عشوائياً كما يظن البعض ، بل إن اختيارهم لمنطقة طريق الجديدة إنما يدل على ذكاء القيادة الفلسطينية ومدى فهمها للواقع اللبناني . كانت تدري الثورة أن السند الحقيقي لها في لبنان هم السنّة ، وكانت تدري أنهم هم من سيقفون معها مهما كان الأمر ومهما كلّف الأمر . وهذا ما أثبتته الأيام فيما بعد . ومنطقة طريق الجديدة هي المنطقة الأمثل لها ، حيث هي جيب سنيّ في بيروت وتقع في وسط بيروت ، أي بعيدة عن مناطق نفوذ الكتائب والقوى اللبنانية الانعزالية الأخرى ، وفي الوقت نفسه قريبة من صبرا وشاتيلا وبرج البراجنة .

قضينا بضع دقائق نتأمل المبنى الضخم الذي احتل أرض معمل الكولا ، واسترجعنا إحدى ذكرياتنا عندما زرنا المعمل ، وكانت الزيارات مسموحة ضمن برنامج معين ، وكنّا حينها أطفالاً دون العاشرة ، وقد انبهرنا بالمصنع وآلاته التي تعمل على تحضير الشراب وصبّه في الزجاجات وإغلاقها . ولعل أكثر ما أبهرنا وسحرنا هي تلك الآلة التي سمّاها موظف المصنع

بالعين السحريّة ، حيث تمر الزجاجات بعد أن تكون قد نُظّفت على حزام متحرك ، وتمرّ كل زجاجة أمام هذه العين السحرية والتي تكتشف أي نطفة وسخ في الزجاجات . وإن اكتشفت وجود وسخة داخل الزجاجة تقوم بإخراجها فوراً وتلقائياً من على الحزام . وحتى يثبت الموظف ذلك ، قام بوضع قطعة ورق صغيرة داخل إحدى الزجاجات وبالفعل ما إن مرّت من أمام العين السحرية حتى أُخرجت الزجاجة .

درنا على أعقابنا ومشينا صعوداً في شارع محمد فاخوري ، ثم انعطفنا يميناً إلى شارع عفيف الطيبي ، والذي ينتهي من الناحية الأخرى عند الجامعة العربية . وشارع عفيف الطيبي من الشوارع المهمة في منطقة طريق الجديدة ، فبالإضافة إلى أنه يصل ما بين الجامعة العربية وكورنيش المزرعة ، وبذلك يشكل حلقة وصل للعديد من الشوارع الجانبية ، فقد كان به من المعالم المهمة والتي يبدو وللأسف أنها لم تعد هناك ، كما أنه كان يحتوي على الكثير من مكاتب الثورة الفلسطينية وحتى أحد مشاغل مؤسسة صامد التابعة للثورة . وكان عرض الشارع يتسع لأربع سيارات ، بما فيها المواقف الجانبية ورصيفان عريضان ، وبناياته كانت كبقية المنطقة لا تتجاوز الستة أو السبعة طوابق . وبسبب ما احتواه هذا الشارع من مكاتب للثورة فقد تعرض لقصف عنيف طوال أيام الاجتياح الإسرائيلي عام ١٩٨٢ ، وقد تفاجأ بشير أن البنايات ما زالت هي نفسها وإن

كانت قد رُمّمت ، فمن عاش الحصار والقصف الإسرائيلي آنذاك لم يكن ليتصور أن تبقى هذه البنايات صامدة هكذا . ولكن جدران البنايات ما زالت تحكي التاريخ ، من خلال الآثار التي خلفتها الصواريخ والقذائف والرصاص .

- أتذكر المكتبة العربية التي كانت هنا في هذا الشارع ، يا بشير؟

- وكيف لا أذكرها وكم قضينا فيها من وقتنا نشتري المجلات والقصص والقرطاسية والصور الملونة ، والتي كانت تأتي على أشكال الملائكة أو السيارات أو الألعاب؟ من ينسى هذا كله يا صاحبي؟ أيمكننا زيارتها؟

- للأسف لا يا بشير ، لقد اختفت المكتبة العربية وأصبح مكانها محل «وَن وِي» للأحذية .

- آه كم ذهبنا أنا وأنت أثناء عطلة نهاية الأسبوع لنشتري مجلدات ميكي ولولو وطبوش ، ومجلات سوبرمان والوطواط وطارق . هل تذكر؟ كانت والله هذه أجمل الأشياء التي كنا نطالعها ، وكنا نعيش كل كلمة وجملة منها .

- طبعاً ، أذكرها ، وهي ما حببتنا بالمطالعة والقراءة ومن ثم أدمنّا على قراءة (المغامرون الخمسة) والشياطين الـ ١٣!

ضحك كلاهما على هذه الذكريات ، والتي بالفعل كان لها وقع إيجابي عليهما ، ثم سأل بشير :

- آه صحيح ، أين محل الممثل فهمان للعصير؟ أتذكر

عندما كنّا نشاهده في محله أحياناً ، وأحياناً أخرى يكون معه الممثل أبو سليم الطبل؟

لم أكن أعرف أين كان محله بالضبط ، فكل شيء قد تغيّر ، ولكن كنت أذكر أنه كان في منتصف الشارع ، فما إن وصلنا إلى منتصفه حتى توقفنا عند محل لملابس المحجبات وسألنا عن محل فهمان ، وأشار البائع إلى محل ذي يافطة سوداء كبيرة مكتوب عليها «أيكونيك» بأحرف فضية كبيرة . بعد أن شكرناه مشينا إلى أن أصبحنا أمامه ، فإذا هو محل ملابس ، والمانيكانات في الواجهة تعرض آخر صرعات الموضة ، وصور مارلين مانرو تزين المحل من الداخل ، بينما يقف عند بابه شاب ملتح وفتاة شقراء بفستان أزرق مزين بدوائر ملونة فضفاض يغطي مفاتنها ، والتي ما إن رأتنا نتوقف أمام المحل وننظر إلى داخله حتى دعتنا إلى الدخول ، معتقدة أننا هنا للتبضع . فسألناها إن كان هذا هو محل فهمان بالفعل فأكدت ذلك ، فشكرناها وانطلقنا نتقفى آثار معالمنا القديمة كمحل أبي شقرة وعبد المجيد مجذوب وغيرها .

-١٥-

كان نجيب يتابع بشير من خلال التطبيق على هاتفه ، وكان قرير البال لا يخشى أن يفقد أثره ، فجلس في سيارته مرتاحاً يشاهد تحرك بشير قرب محطة الإطفائية ، ومن ثم سَيره نزولاً باتجاه جسر الكولا ، وكاد نجيب أن يغيّر مكان انتظاره عندما تعدى بشير شارع عفيف الطيبي وأكمل طريقه باتجاه جسر الكولا ، ولكنه عاد فقرر الانتظار مكانه ، إذ كان يرجح عودته إلى عفيف الطيبي ، فهو شارع الحي ولا شك سيمران به ، إذ كان واضحاً لنجيب أن بشير ومن معه في رحلة تفقدية بحثاً عن الذكريات .

وكان تحليل نجيب في محله ، فما لبث أن عاد بشير وفارس بعد وقت قصير وانعطفا يميناً إلى شارع عفيف الطيبي ، وهنا بدا على نجيبب التوتر والترقب ، وبدلاً من مراقبة مكان بشير من خلال هاتفه ، أصبح يراقبه من خلال مرآة السيارة . . . رآهما يتوقفان عدة مرات وكأنهما يتفقدان بعض المحلات ، وما هي إلا دقائق معدودات ومرّ بشير بمحاذاة سيارة نجيب ، الذي انتظر حتى ابتعد بشير عنه أمتاراً عدة فترجل من سيارته واتجه إلى

الرصيف . كان بشير وفارس أمامه لا يبعدان عنه أكثر من عشرة أمتار . كان يضع يده داخل سترته قابضاً بها على مسدسه ومستعداً كل الاستعداد .

في تلك الأثناء ، كان أمين في سيارته يهاتف زملاءه الآخرين :

- أين أنتم؟

- نحن عند جسر الكولا ونتابع نجيب في شارع عفيف الطيبي . سنكون هناك خلال دقائق بسبب الزحام .

- إنني أنعطف إلى شارع عفيف الطيبي الآن . أريدكم معي فوراً .

- أمهلنا دقيقتين أو ثلاث .

وفجأة ظهرت سيارة الأمن العام التي يقودها أمين آتية من ناحية الجامعة العربية وباتجاه نجيب ، فتشنج نجيب واصفرّ وجهه ، بل ربما احمرّ من شدة الغضب . لم يكن يدري من في سيارة الأمن العام أو سبب قدومها ، ولكنها خرّبت عليه خطته . فهو لا يستطيع الآن أن يقوم بما نوى ، فأي صراخ أو عويل سيحرك أفراد الأمن العام فوراً ، والذين خمّن أنهم في سيارة الأمن العام ، ولن يكون لديه أي متسع من الوقت ليفرّ أو يتصرف . كان أفضل حل لديه أن يتحرك مسرعاً باتجاه سيارته ويُغادر المكان .

قفز نجيب داخل سيارته . . . أمّا أمين فكان ينظر إلى

الخريطة التي تحدد موقع سيارة نجيب ، وكان مستميتاً أن يعرف أي السيارات هي . فمع عدد السيارات الكبير وعدم دقة تحديد موقع السيارة لم يكن يدري أين نجيب بالضبط . كان يحرك رأسه يميناً ويساراً وإلى أعلى وأسفل ، يحاول جاهداً أن يرى وجوه سائقي السيارات وفي الوقت نفسه اتصل بزملائه يسألهم عن تفاصيل سيارة نجيب ولونها ، حتى يتأكد مرة أخرى من معلوماته . وما كاد يتلقى المعلومات عن سيارة نجيب ، حتى كان نجيب قد غادر شارع عفيف الطيبي بعد أن انعطف يميناً على شارع سليم البستاني دون أن يستطيع أمين رصده .

-١٦-

انعطفنا يساراً على شارع سليم البستاني صعوداً باتجاه الملعب البلدي ، وقد أصبحت الجامعة العربية على يميننا ، وكان قد أعيد للجامعة رونقها وجمالها بعد التدمير الممنهج الذي اتبعه الجيش الإسرائيلي عام ١٩٨٢ ، اعتقاداً منه أن في جامعة بيروت العربية ، وخاصة في كلية الهندسة ، توجد مستودعات أسلحة للمقاومة الفلسطينية واللبنانية ، أو مقرات سرية لها . وكان هذا كله هراء ، وكانت معلومات إسرائيل خطأ بالنسبة لما كانت تحتوي المدينة الرياضية والتي تقع بين طريق الجديدة والمطار . فبداية اجتياح عام ١٩٨٢ قامت إسرائيل بقصف عنيف ومدمر للمدينة الرياضية ، والذي استمر يومها لساعات طويلة لم تنقطع الطائرات الحربية بغاراتها عليه . وحتى قاعة المعارض في الجامعة العربية ، والتي كانت تحتوي على معرض للوحات التشكيلية لم تسلم من القصف الإسرائيلي المباشر عليها ، وكأنهم يريدون حتى أن يقتلوا روح الفن والإبداع والجمال في أنفس الشعب العربي . ولكنهم كما لم يستطيعوا أن يحطموا عزيمة الشعب اللبناني والفلسطيني ، ولم يستطيعوا أن يحطموا صمودهما ، كذلك لم يستطيعوا أن

يحطموا حبهما للفن ، إذ برغم الدمار الذي حلّ بقاعة المعارض ، فإن كل اللوحات خرجت سليمة . وربما كانت تلك آية لم يفهمها الجيش المتغطرس وقائده السفاح شارون ، لم يفهموا هذه النبوءة ، نبوءة بما أنكم لم تقدروا على خدش لوحة من قماش ولا أن تخترقوها بصواريخكم ، فأنتم لن تخترقوا خطوط الدفاع عن بيروت .

المبنى الذي كان فيه مكتب أبي أياد والذي هو على ناصية شارعي سليم البستاني وعفيف الطيبي ، كان المبنى كما تركته الطائرات الإسرائيلية عام ١٩٨٢ ، بناية عالية بطوابقها السبعة تحولت إلى ركام ، ولم يبق منها سوى بضع غرف من الطابق الأول والثاني ، وكأنها متحف دال على إجرام الجيش الإسرائيلي الذي لا يبالي بحياة الأبرياء . استمررنا بالسير وبعد بنايتيْن أي عند الشارع التالي الذي يحاذي الملعب البلدي وفيه كان محل الشعيبيات ، وفي آخره يقع مركز الإطفائية ، سأل بشير عن مطعم الشموع الذي كان عند ناصية شارعي الملعب البلدي وسليم البستاني . طبعاً لم يكن للمطعم من أثر بعد أن تحوّل لبيع الأدوات الكهربائية للمنازل . لم يظهر الأسى على وجه بشير هذه المرة ، فيبدو أنه قد بدأ يعتاد اختفاء الذكريات ، بالرغم من عدم تقبله ذلك في الوقت نفسه . ولكن الحياة تدور وتتقدم والناس تتغير .

أصبحنا أمام الملعب البلدي ، والذي هو ملعب كرة قدم

محاط بعدة طبقات من المقاعد للمتفرجين ، وهو من المعالم القديمة في بيروت وطريق الجديدة . ولكن لم يكن لنا فيه ذكريات كثيرة ، باستثناء مباراة أو اثنتين حضرناهما في الملعب . فالحرب الأهلية لم تجعل الاحتفالات الرياضية بالشيء المهم أو الآمن في الوقت نفسه . إلا أنه كان هنالك حدث كبير حضرناه أنا وبشير وكدت أن أذكّره به لولا أن سبقني إلى ذلك .

- إن آخر ذكرى لي في الملعب البلدي كانت عام ١٩٨٢ عندما خرجت طريق الجديدة بل بيروت بأكملها لتودع مقاتلي الثورة الفلسطينية قبل رحيلهم عن بيروت . أتذكر ذلك اليوم؟

أتسألني يا بشير إن كنت أذكر ذلك اليوم؟ ومن في بيروت ينسى ذلك اليوم . بالرغم من عظم فرحة الناس بانتهاء الحرب والقصف والقتل والتدمير ، إلا أن حزنهم على مغادرة المقاتلين كان أعظم . يا أخي ، كان الناس مستعدين أن يضحوا أكثر مقابل أن تبقى الثورة ومقاتلوها . هؤلاء المقاتلون مع إخوانهم من اللبنانيين كانوا أسوداً ، نعم هكذا كان سكان بيروت الغربية يرونهم . كانوا أسوداً بكل معنى الكلمة ، وكانوا أشاوسَ جابهوا أعتى جيوش المنطقة بصدورهم المكشوفة ، قارعوهم لثلاثة أشهر لم يكلّوا خلالها لحظة واحدة ، ونالوا من الجيش المحتل وكبّدوه خسائر لم يكن يتوقعها فحسب بل فاقت ما قد خسره في كل الحروب السابقة مجتمعة . ومع الحصار والدمار والقتل ،

استطاعت الثورة أن تجعل الطعام والماء متوفرين لسكان بيروت المحاصرة . وسكان بيروت الغربية ليسوا ممن ينسى الجميل ، فكيف بجميل من دافع عنهم وعن كرامتهم وكرامة الأمة العربية ، وساندهم وكان لهم عوناً وسنداً في السراء والضراء ، حتى إنهم التحموا مع بعض بأروع الصور .

عجّ الملعب البلدي بدءاً من أول يوم لخروج المقاتلين الفلسطينيين ، بل كل منطقة طريق الجديدة كانت بحراً من البشر جاءت لتودع الجبارين هؤلاء ، من الفاكهاني حيث انطلقت كتيبة قوات ١٧ إلى الملعب والطرق المؤدية إلى المرفأ ، حيث كانت السفن جاثمة بانتظار حمولتها الثمينة . نزلت النساء قبل الرجال إلى الشوارع والملعب البلدي ، وعلت زغاريدهن مباركة نصر بيروت على شارون ، وكانت زغاريد وداع الحبيب أيضاً . وألقي الأرز والورد على المقاتلين الذين كنت ترى الدمع في عيونهم تأثراً بما يشاهدونه من أهالي بيروت ، هؤلاء الأسود الذين كانوا حتى أمس على خطوط الجبهات كالوحوش تفتك بالجنود الإسرائيليين وبآلتهم الجهنمية وكانوا يتسابقون على الموت ، هؤلاء تراهم الآن والدمع في أعينهم ، وتسمعهم يبكون على فراق من أحبهم وأحبوه ، السيدات والفتيات بالمئات ينثرن الورد عليهم ، ومنهن من تقدم وردة لهذا وأخرى لذاك . جاء مخاتير أحياء بيروت المختلفة ملتحفين بالآلاف من سكان أحيائهم وممثلين عن عائلات

أحيائهم ، جاؤوا يودعونهم بأسمى الأحاسيس والمشاعر . كان الناس ، نساء ورجالاً وأطفالاً يملؤون الشوارع ، حاملين الأعلام الفلسطينية واللبنانية ، ويهتفون بحياة الثورة والمقاتلين وبيروت . كانت مظاهرة شعبية بكل معنى الكلمة . هاجت بيروت الغربية يومذاك واهتزت بأبنائها كما لم تهتز بفعل أكثر من مئتي ألف قذيفة وصاروخ ألقاها عليها شارون في يوم واحد من شهر آب أثناء الحصار . نعم كانت بمعدل قذيفتين ونصف في الثانية الواحدة ، وها هو الشعب الذي أراد شارون أن يخرج إلى الشارع لطرد المقاتلين ، ها هو يخرج إلى الشوارع ليقول للمقاتلين أن يبقوا ، ألا يرحلوا . ربما الشيء الوحيد الجيد الذي فعله شارون ، يا بشير ، هو أنه مسح الكثير من الخطوط والفواصل .

تنهد بشير وقال إن أيام تلك الأشهر الثلاثة بقيت حية معه في أمريكا وإنها من أكثر ما يتكلم به مع أصدقائه من العرب والأمريكيين . وكانت بالفعل أياماً لا تنسى ، وكيف تنسى والموت من أمامنا ومن خلفنا وهو يأتيك من فوقك . عندما تذهب متطوعاً لإسعاف الجرحى والمصابين ، وأنت لا تدري إن كنت ستؤول إلى مصيرهم أو مصير أسوأ ، فتلك ذكرى لا تنسى . بقينا بعضاً من الوقت عند الملعب البلدي ثم أكملنا مسيرنا .

توقف بشير فجأة وكأن وحياً قد هبط عليه فجأة ، وقال :

- إني أشم رائحة فروج! لا شك أن «أبو علي وأربعين فروج» لا يزال موجوداً . إني أشمه وأنفي لا تخطئ .

كان واضحاً انه يمزح إذ لم يكن من الممكن أن يشم رائحة الفروج من هذه المسافة ، ولكنني طمأنته إلى أن «أبو علي وأربعين فروج» لا يزال مكانه وهو حي يرزق . ابتهج على هذه الخبرية وانطلقنا باتجاهه ، وكنّا لا نزال بمحاذاة حائط الملعب البلدي ، والذي كان قد تحول إلى لوحة كبيرة كأنها جدارية ملونة برسومات عن لبنان وعن بيروت ، كما تخللتها آيات قرآنية تعظ الناس مثل «ولا تقربوا الزنا» و«لئن شكرتم لأزيدنكم» ، ثم عبرنا الشارع إلى الجهة الأخرى حتى نكون بناحية «أبو علي وأربعين فروج» . وهذا الجزء من شارع سليم البستاني الممتد على طول الجامعة العربية وحتى الفاكهاني ، واسع فسيح وبأرصفة عريضة تزيد على الثلاثة أمتار وتظللها أشجار الكينا على الناحيتين . وأشجار الكينيا هذه لا شك أن عمرها أكثر من ستين عاماً حتى أصبحت شاهقة بارتفاع أربعة طوابق أو أكثر ، وكل واحدة منها تقريباً صمدت أمام ويلات كل الحروب الأهلية والاجتياح الإسرائيلي وحروب التصفيات التي تلت . لا شيء يقتلها . ربما يجب أن تكون هي شجرة لبنان الرسمية بدلاً من الأرز .

- يبدو لي أن هذا الحي برمته لم يتغير منذ أن تركته ، اللهم إلا من بعض التغييرات الطفيفة وتغير أسماء بعض المحلات . فهذه المحلات كشركة الياسمين وصراف جمال وبقالة أبو عمر وأبو خالد لم تكن على أيامي ، وخاصة محل ساتيلايت وورلد

حيث لم نكن قد سمعنا بهذه التكنولوجيا بعد .

- صحيح يا بشير . فهنا على يسارنا كما تعلم ، خلف الملعب البلدي ببضعة شوارع يقع مستشفى المقاصد الإسلامية ، وكل هذه الأحياء كانت مبنية كاملة منذ نهاية الستينيات وبداية السبعينيات . وحتى بعد الاجتياح الإسرائيلي والتدمير الممنهج فقد فضل الأهالي أن يرمموا بناياتهم كدليل على صمودهم ، باستثناء بعض البنايات التي كانت قد تهدمت بشكل شبه كامل كبناية الفاكهاني . أما البنايات الأخرى فقد أعادوها إلى ما كانت عليه ، ولكن آثار الشظايا على جدران البنايات لا تزال تحكي قصة الحرب وقصة الصمود .

- ألم يكن هنا في مكان بأحد هذه الشوارع محل «سنّو» ، والذي كان يبيع مما هبّ ودبّ ، وكنّا أحياناً ونحن طلاب مدرسة ثانوية الروضة نذهب إليه لشراء مواد كيميائية لتجاربنا الكيميائية ، حيث كنا نعتقد بأننا مخترعون صغار .

تبسّمت لما قاله بشير إذ بالفعل كان قد أعاد لي ذكرى كنت قد نسيتها تماماً .

- يا الله ، بالفعل ، أنت لا تزال تذكر ذلك . كان كل واحد منا لديه أدوات مختبرات ونقوم بتلك التجارب . يعني ، الحمد لله أننا لم نتسبب بكارثة في منازلنا .

- مع أننا كدنا أن نتسبب بذلك بضع مرات .

- أي والله . ولكن لا أذكر أين سنّو بصراحة ، وإن كنت

أعتقد أنه خلف كلية الإمام الأوزاعي للدراسات الإسلامية تلك التي على يسارنا . لا أدري كيف كان يبيعنا بعض المواد الخطرة كالصوديوم والبوتاسيوم والفوسفور والصلفر (الكبريت) عدا عن الحوامض . كانت أياماً .

- صحيح ، يعني كان بإمكاننا أن نضنع قنبلة ذرية من عند سنّو .

مضينا إلى «أبو علي وأربعين فروج» ونحن لا نزال نتكلم عن اختراعاتنا وكوارثنا الكيميائية ، وعلى الرصيف كانت قد تلاشت أشجار الكينا وحلت محلها أعمدة الكهرباء وأشجار أصغر كثيراً وحديثة . وفجأة التفت إليّ بشير قائلاً :

- يا أخي ، هل انقلب سكان هذا الحي بعد الحرب وأصبحوا متدينين فجأة؟ أين تنانير الميني والأقصر من ميني؟

- ماذا تعني؟

- ما أقصده هو أننا كلما غصنا في هذه المنطقة لاحظت أن الكثير من العاملين فيها يرتدون الدشاديش ، وبأيديهم المسابح يسبّحون وكأن الناس يستعدون للصلاة ، كما أنك تسمع ترتيل القرآن يخرج من معظم المحلات هنا .

- لا أعتقد يا بشير . إن هذا الحي هو بالفعل كذلك منذ أن وُجد . فلا تنسَ أن كلية الإمام الأوزاعي هنا ، وكذلك مدارس المقاصد ، ومجمع الدعاة الإسلامي وبيت مفتي لبنان السابق الشهيد حسن خالد .

هزّ رأسه موافقاً وكنّا قد وصلنا «أبو علي وأربعين فروج» . ومحل الفروج هذا ليس كبيراً بل هو بحجم محل عادي لا تتجاوز مساحته الخمسة أمتار بخمسة أمتار . ولكن طعم فروجه وجودته وتاريخه لا حدود لها . دخلنا المحل وكنت أنظر إلى بشير الذي كنت تستطيع أن ترى لعابه يسيل من منظر ورائحة الفروج المحمر في ماكينات الشواء . ولم لا ، فأنا كنت كذلك أيضاً ، ومن الذي يستطيع أن يقاوم رائحة الفروج وخاصة فروج «أبو علي» . طلبنا فروجة على أن نأكل منها ما يتيسر لنا ، فالمهم هو أن نعيد ذكريات زمان . وجاءت الفروجة ملفوفة بخبز الصاج المرقوق ، ومعها خلطة الثوم وأخذنا نعمل أصابعنا بها وأول ما التهمنا هو جلدتها المحمرة . آه ، كم كان طعمها لذيذاً وكأن ثلث قرن من الزمن لم يغيّر شيئاً من «أبو علي وأربعين فروج» . التهمنا أكثر من نصف الفروجة في أقل من ثلاث دقائق ، وكنّا بالكاد نستطيع أن نضع اللقمة في فمنا بسبب الضحك المتواصل والنهم الذي كنا فيه . حتى صاحب المحل والزبائن كانوا ينظرون إلينا نظرة استغراب ، ولكننا لم نأبه بهم حتى إننا اخرجنا هواتفنا وأخذنا نصور أنفسنا مع الفروج .

انتهينا من افتراس الفروجة والتي انتهى الأمر بأن أتينا على كلها ، وخرجنا ونحن لا نزال نضحك من منظرنا أثناء الأكل وأكملنا طريقنا نزولاً باتجاه شارع صبرا . أصبحنا مقابل المسجد الذي تقع خلفه المحكمة الشرعية السنيّة ، عندما لمحت

شيئاً اعتقدت أن بشير سيفرح به وكنت ادعو أن يكون هو ما رأيته ؛ إذ لم يكن من الممكن أن أراه بشكل جيد دون العبور إلى الناحية الأخرى من الشارع . انحرفنا يساراً ودخلنا شارعاً فرعياً تحفه عن اليسار كلية عمر بن الخطاب ، وعن اليمين المحكمة الشرعية السنيّة ، ومشينا بضعة أمتار أخرى ، وهناك في وسط الشارع أمام جمعية كشّاف الجرّاح ومحل رشيد غلاييني ومقابل مكتبة العاصي ، كان بائع من الباعة المتجولين بعربته الكبيرة المملوءة باللوز الأخضر والعوجة . كان منظراً رائعاً بالفعل ، وكأن هذا التل الأخضر في وسط العربة قد هبط من الجنة بلونه الأخضر الباهي والرائع الذي يشدك إليه شداً ، ليس بسبب الطعم ، ولكن اللون نفسه يشدك . كنت أنظر إلى بشير لأرى ردة فعله ، وبالفعل ما إن وقعت عيناه على العربة وحلل عقله ما يرى ، حتى فتح عينيه وفمه وأشار بسبابته باتجاه العربة ، دون أن ينبس بحرف بعد أن أخرسه المنظر .

قهقهت على شكل بشير وسحبته من يده حتى يتذوق اللوز والعوجة واللذين كنّا مغرمين بهما ، إضافة إلى الجنرك أيام الصبا والشباب . اشترينا بعضاً من اللوز والعوجة وعدنا أدراجنا إلى الناحية الأخرى من الشارع باتجاه صبرا ، وكنّا لا نزال نستعيد ذكريات اللوز .

- أتذكر يا بشير كم من مرة اشتريناها ليس لأ ننا كنّا نريد أكلها ، ولكن لكي تكون لنا عوناً بالتقرب للفتيات من زميلاتنا

في الجامعة ، فكما تعلم فإن كل الفتيات كنّ يعشقن اللوز والجنرك خاصة مع الملح .

- إيه ، صحيح ، وللوز عندي معزّة خاصة وكذلك عند غادة ، فعند بائع اللوز أمام مدخل الجامعة الأمريكية كان لقاؤنا الأول ، والذي كان بمحض الصدفة .

- أذكر ذلك تماماً ، وكأنه كانت لك حاسة سادسة لأنك قلت ذلك اليوم إن هذه الفتاة هي من ستكون زوجتك ، أو بالأحرى كما قلتها أنت «أم عيالي»!!

ضحك بشير على هذه الجملة وقال :

- أصحيح إنني قلت ذلك؟

- طبعاً ، طبعاً ، ألا تذكر؟

- لا والله ، ولكن أذكر أننا كنّا واقفيْن قريباً من بائع اللوز غير عابئيْن به ، ولكن عندما لمحنا غادة ماشية باتجاه عربة اللوز خلت أنها لا شك تريده ، فاتجهت بدوري إلى بائع اللوز متظاهراً بأنني أريد لوزاً ، ولكن في الحقيقة حتى أحاول أن أقوم بدور الشهم وأشتري لها لوزاً .

- وطبعاً ، هي لم ترفض ، فما إن عزمت عليها حتى وافقت .

- صحيح ، وقد اعترفت لي لاحقاً ، بعد زواجنا ، أنها أغرمت بي من أول نظرة ، وخاصة بطريقة كلامي ومظهري وعرفت أنني ابن حلال .

- ياه ، كل هذا يا رجل؟
- المشكلة أنها لم تدر بأنني ورطت نفسي عندما تبرعت أن أشتري لها اللوز . ألا تذكر أنه لم يكن معي ما يكفي من المال ، وكنت سأتبهدل شر بهدلة ، لولا أن أسعفتني أنت!
- أنا؟!
- نعم ، أنسيت؟ إن معرفتي بغادة ومن ثم زواجي بها ، هو بسببك!
كنت أستمع إلى بشير وأحاول أن أحلل ما يقوله ، وادعائه بأنني سبب زواجه . فأكمل قائلاً :
- كنت تقف بجانبي بينما هي على الناحية الأخرى من العربة ، وهمست بأذنك أن أمددني بالمال ، وفعلت أنت من خلف ظهري كي لا تنتبه غادة . ونجحت الخطة .
- يعني ، أتريد أن تقول لي ، لو أنها شاهدتني أعطيك المال ، لعرفت أنني أنا من يملك المال ولكانت زوجتي الآن؟
ضحك بشير على هذا الجملة وقال :
- ربما ، وما يدريك ما يدور في خلد النساء!! على أي حال ، لا تخف ، لم يكن سيحصل هذا . فهي كما قلت لك ، كانت قد أغرمت بي من أول نظرة ، حتى إنها أيام الخطوبة ، اعترفت لي بأنه كان لها صديق آخر تعرفه من أيام الطفولة ، ولكنها تركته من أجلي . فلا تغترّ بنفسك يا كازانوفا زمانك .
ضحكنا على تعليق بشير وأكملنا سيرنا .

-١٧-

عندما انعطف نجيب يميناً على شارع سليم البستاني ، لم يدر أين يذهب . بل كان كل همّه أن يخرج من شارع عفيف الطيبي بأسرع وقت . . . لم يدر حينها عن السبب الذي يحثه على الخروج ولكنه شعر فقط بالحاجة إلى ذلك . اتجه نزولاً في شارع سليم اللوزي حتى وصل محطة الوقود في نهايته ، والقريبة من جسر الكولا وتوقف هنالك برهة جمع خلالها أفكاره . لم يكن خائفاً من أن يفقد بشير ، فهو يتابع مكانه على هاتفه ، كما أنه يعرف أنه ينزل في فندق الهيلتون . لذلك جلس في سيارته دقيقة يعيد حساباته ويقرر أين ينتظره حتى يقضي عليه ، دون أن يجلب لنفسه أي انتباه . . . . وقرّر أن المكان الأنسب هو خلف الملعب البلدي على شارع محمد فاخوري وقبل تقاطع شارع أبي شاكر ؛ لأنه إن قرّر بشير ومن معه أن يعودا سيراً فلا شك سيعودان من حيث أتيا . . . كما أن هذه المنطقة هادئة وليست مكتظة .

تحرك نجيب مغادراً محطة الوقود باتجاه دوار الكولا ، ثم انعطف يميناً إلى شارع محمد فاخوري ، صاعداً باتجاه الملعب البلدي . وفي الوقت نفسه ، كان أمين ومن معه يتحركون

بسياراتهم باتجاه نجيب ، الذي ما إن وصل إلى وجهته حتى ركن سيارته وأخرج هاتفه وبدأ يتابع بشير الذي كان قد أصبح أمام الجامعة العربية .

اقترب أمين من مكان وقوف نجيب ، واختار زقاقاً قريباً اختبأ به حتى لا يلفت الأنظار إليه ، خاصة وأنه يقود سيارة أمن عام مزيفة ، وكان المكان الذي اختاره يسمح له بالتدخل إن احتاج الأمر لذلك . وما هي إلا لحظات حتى وصلت السيارتان من خلف نجيب وتوقفت إحداهما خلفه مباشرة ، إلا أنه لم يكن هنالك مكان أمامه لتقف السيارة الأخرى ليمنعوه من الهروب . اضطرت السيارة الأخرى إلى الوقوف بمحاذاة سيارة نجيب على الرصيف الآخر ، وبدأ ركاب السيارتيْن وأمين بالتحدث مع بعضهم من خلال الهاتف ، وأعدوا خطة الانقضاض على نجيب .

اتفقوا على أن تتحرك السيارة على الرصيف الآخر وتقف بجانب سيارة نجيب مانعة إياه من التحرك إلى الأمام ، بينما السيارة الأخرى كفيلة بمنعه من الرجوع . وبالفعل ، ما إن توقفت السيارة ملاصقة لسيارة نجيب حتى قفز الرجال من السيارتيْن ، وفي ثانية أو ثانتيْن كانوا قد وصلوا باب سيارة نجيب وفتحوا بابها وأمسكوا بياقته ، وقد كان الذهول والرعب يكسوان وجهه .

لم ينتظر الرجال ، فسحبوه من سيارته والمسدسات مصوبة

عليه ، وفي تلك اللحظة كان يقف أمين بسيارته عندهم ، فرموه داخل القفص الخلفي لسيارة أمين ، وركب معه اثنان من الرجال دون أن تفارقه مسدساتهما ، وانطلق أمين بأقصى سرعة .

-١٨-

لحظات وصرنا أنا وبشير مقابل محطة الدنا الجاثمة عند مدخل شارع صبرا ، والمؤدي إلى حي صبرا ومنه إلى مخيم شاتيلا . ومحطة الدنا مَعْلَم قديم في بيروت يوفر خدمتيْن ، الأولى وهي وقود للسيارات ، والثانية أنه كالمنارة حيث تهتدي الناس به بغض النظر عن أي مكان يكونون فيه . فما عليك إلا أن تقول محطة الدنا ، والكل يعرف أين هي . . . وحتى إنك تستطيع أن تُسقط كلمة محطة فتقول الدنا فقط .

دخلنا شارع صبرا على يميننا وشعرنا وكأننا قد اخترقنا حاجزاً زمنياً أو بعداً آخر من العالم . فأول ما يشد انتباهك هو صورة ياسر عرفات الضخمة المعلقة فوق منتصف الشارع ، والتي يزيد عرضها على الثلاثة أمتار ، وارتفاع مشابه ثم تنتبه إلى الشارع وكيف يعج بالناس على أنواعهم ، وخاصة بالنساء والفتيات اللاتي خرجن للتسوق من المحلات المصفوفة صفيْن على مد النظر ، وصوت الباعة وحديث الناس تملأ الفضاء ، أضف إلى ذلك صوت السيارات والدراجات النارية . . .كان كل ذلك قد فاجأنا ، فقبل ثوان قليلة قبل أن ندلف إلى شارع صبرا ، لم نكن نبعد سوى أمتار عن هنا ، ولم يكن يصل إلى

آذاننا كل هذا الصخب وصوت كل هذه الحركة ، والتي كأنك في خلية نحل .

تستقبلك في بداية شارع صبرا بضع بنايات ذات ستة أو سبعة طوابق ، ما تلبث بعد الزقاق الثاني أن تهبط إلى مبانٍ بطابقين أو ثلاثة . وأسفل البنايات على الرصيفين مكتظ بالمحلات والباعة والبضاعة والناس . والمحلات كلها قد احتلت معظم الرصيف الذي أمامها ، لتعرض ما عجز المحل عن عرضه في الداخل . فهنا محل أدوات منزلية يعجّ بكل ما هو بلاستيك من أوعية وعلب وجرادل بألوان زاهية كالأحمر والأخضر والأصفر والأبيض ، وبقربه محل آخر للأدوات المنزلية يعجّ أيضاً بالأغراض البلاستيكية ، إضافة إلى قوالب الكعك الخشبية ، ومكانس القش بنوعيها الناعمة والخشنة معلقة بجانب شجرة أمام المحل . وهناك على الناحية الأخرى محلَ بن الداعوق والذي له تاريخ عريق في هذه المنطقة ، وتصل إلينا رائحة البن المحمص الشهية ، بالرغم من محل الأسماك الذي أمامنا والذي يعرض الأسماك الطازجة على أنواعها ، كاللوقس والبوري وسلطان إبراهيم وغيرها بأحجامها المختلفة ، وكذلك الصبيدة والقريدس والناس تقف ، تنظر ، تغادر ، أو تتحسس عين سمكة وتنظر بداخل خياشيمها وتقرر أن تشتري ، وبائع الخضار بالقرب منه يعرض خضار الموسم ، والتي تستطيع أن ترى طعمها من شكلها . نعم ، يمكنك أن

ترى الطعم الشهي يخرج منها ، وهناك على الناحية الأخرى بائع وعربته يبيع الفراولة وينادي عليها بصوته الجهوري ، محاولاً أن يطغى على صوت بائع عربة آخر يبيع المشمش ، وأمتار قليلة بعد ذلك وهذا محل ثياب يعرض القطع المختلفة من فساتين وتنانير وسراويل بألوانها الحمراء والخضراء والزرقاء والبنية ، وبجانبه محل آخر يعرض رؤوس سيدات بلاستيكية تلبس الحجابات المختلفة الألوان والتصاميم . فمنها ما هو تقليدي ، ومنها ما يلف الرأس والرقبة بألوان زهية وبرّاقة ، وبعدها ملحمة فاروق العشي ، والذي تتدلى منه أنواع لحوم البقر والخرفان ، والزبائن أمامه ، فهذا الذي يريد كيلو للكفتة والآخر للحشي ، ونمرّ من أمام محل ألعاب يبيع كل ما يشتهيه أي طفل وطفلة وبين هذه المحلات وتلك محلات أخرى للملابس والخضروات والبقالة . والسيارات تمرّ والعربات تمشي وتقف لتبيع كيلو من هذا وكيلوين من ذاك ، لتستمر بالسير بعدها ، وهذا الجار يحيّ ذاك الجار وعامل المقهى يجري بصينية عليها أكواب شاي ، متفادياً أن يصطدم بأحد ، والناس تمشي ذهاباً وإياباً ونحن الاثنان غائصيْن في هذا البحر البشري .

كان بشير منبهراً بما يرى ويسمع فعقب :

- يا أخي إن الحياة تدب في شارع صبرا بشكل غير طبيعي ، أو على الأقل بالنسبة لي ، فصبرا على أيامنا كانت فيها حركة ونشاط وإن كانت محدودة نوعاً ما ، أما الآن فهي بمستوى آخر .

لم يكن تفاجؤ بشير أو انبهاره غير متوقع بالرغم من معرفته قديماً بالمنطقة ، حيث إن الشخص الغريب عن المنطقة يعتقد أن صبرا هو مخيم للاجئين الفلسطينيين يقطنه عشرات الآلاف من الفلسطينيين ، إضافة إلى مخيم شاتيلا ، وأن كل ما يحتاجه المخيم هو بضعة محلات لا غير . ولكن الحقيقة غير ذلك تماماً . فصبرا هو في الواقع حي من أحياء بيروت متاخم لمخيم شاتيلا للاجئين . وسكان صبرا هم خليط من الفلسطينيين والبيروتيين الأصليين ، ولكن صبرا تحول مع الزمن إلى سوق يستقطب الناس من الأحياء المجاورة والبعيدة وحتى من رأس بيروت . فسكان المنطقة والمناطق المجاورة ذوو الدخل المحدود أو القليل يأتونه بسبب أسعاره الرخيصة ، مقارنة بالأسواق الأخرى ، بينما ذوو الطبقة الوسطى يأتونه بسبب خضاره وفاكهته الطازجة التي تتجدد يومياً بسبب نفودها السريع . والكل بمن فيهم من سكان رأس بيروت يأتونه إما للأسماك الطازجة والتي تشتريها وكأنك واقف تشتري سمكاً طازجاً من مرفأ صيدا ، أو يأتون خصيصاً لشراء أطباق الفول والحمص من محل عيسى الغنيٍّ عن التعريف في بيروت وخارج بيروت .

– يا أخي ، والله إنه لمن المستحيل القضاء على روح الشعب العربي ، وخاصة اللبناني والفلسطيني ، فهم بالرغم من كل المآسي التي حلّت بهم والمذابح إلا أنهم يتحدّون كل هذه

المؤامرات بحبهم للحياة والتفاني فيها . كيف يلملم شعب جراحه وقطعه التي تبعثرت بالمجازر ويعيد بناء حياته هكذا ، بكل سهولة؟ غريب والله .

- يا بشير ، من يعش في بيروت ، وخاصة من عاش فيها أثناء السبعينيات والثمانينات يتعلم كيف يحيا وأن يستمر بالحياة مهما كان ويكن . وحتى الذين استشهدوا لا يزالون أحياء بينهم . فكل محل تقريباً لا يخلو من صورة لعرفات أو أبو الوليد أو أبو جهاد ، وكلما غصنا أكثر في صبرا كثرت هذه الصور وصور غيرهم من الشهداء .

- أتدري ، بالرغم من أنني كنت لا أزال في بيروت وقت حدوث مجزرة صبرا وشاتيلا ، إلا أنه لم تُتح لي فرصة زيارة هذه المنطقة قبل ذهابي إلى أمريكا . وقد قرأت الكثير عن الموضوع ، وقد كنت تواقاً لزيارتها لأرى الأمور على الواقع .

- نعم كُتب عن هذه المجزرة الشنيعة ، والتي راح ضحيتها ما بين ألفين وثلاثة آلاف بريء من اللبنانيين والفلسطينيين ، ولعل كتاب بيان نويهض الحوت هو أفضل وأشمل مرجع عن الموضوع ، ولعله يفيدك في دراستك عن الفن الذي يُولد من رحم الحروب .

- لا شك في ذلك لأن الكثير من الفنانين العرب وحتى غير العرب تناولوا مجزرة صبرا وشاتيلا بأعمالهم الفنيّة ، وسأحاول أن أحصل على نسخة منه قبل سفري .

- لا تهتم فسأوفر لك منه نسخة قبل سفرك .

كنّا قد أصبحنا أمام محل للخضروات عند بداية زقاق غانا ، تقف أمامه امرأتان بثوبيهما الفلسطيني التقليدي تبتاعان خضار طبخة يومهما ، وزقاق غانا كغيره من الأزقة بالكاد يتسع لسيارتيْن متلاصقتيْن ، وفيه بعض المحلات كمحل معجنات وحدادة وبقالة ، وبدت هذه المحلات بئيسة ، وربما تكون لتسلية أصحابها أكثر منها للنفع المادي .

دخلنا إلى الشارع على يسارنا والذي يقع مقابلاً لشارع غانا تقريباً ، والذي به عدة مربعات من المباني ذات الأدوار الستة أو السبعة ، وفيه أيضاً يقع مطعم عيسى للفول ولفتُّ نظر بشير إليه . ومن أمام محل عيسى الفوال اتجهنا يميناً إلى حيث كان في يوم من الأيام مستشفى غزة قائماً بكل عنفوانه ، ومن بعده يقع مخيم شاتيلا . وعند نهاية الشارع انحرفنا يميناً فصار سوق الخضار المركزي على يسارنا ، ومنه محلات الخضار والكبيس والزيت والزيتون وما هي إلا خمسون متراً انعطفنا يساراً من عند جامع الدنا بمئذنته المربعة والمكللة بقبة خضراء شبيهة بمئذنة جامع عبد الناصر ، وكان الجامع محاطاً بأعلام فلسطين وحماس وصور عرفات وأحمد ياسين . وبعد حوالي ربع ساعة من المشي من عند جامع الدنا ، وهي مسافة كيلومتر ، وصلنا قرب نهاية المخيم .

-١٩-

عند نهاية مخيم شاتيلا وقبل شارع الإمام موسى الصدر المؤدي إلى السفارة الكويتية بقليل ، كان الظمأ قد نال منا نحن الاثنين . توقفنا أمام محل حيدر حيث كان هنالك بائع جوال بعربته يبيع المشروبات الغازية والمياه . وقفنا نروي أنفسنا وأخذنا نتفرج على المخيم الذي كان لا يزال يحافظ على بضعة بيوت من عصر الاجتياح ، وواضح أن القسم الأكبر من هذه البيوت قد تم ترميمه ، وربما لو تنطق هذه البيوت لروت مئات بل آلاف القصص المروعة . وتتخلل البيوت هذه بنايات أحدث عهداً وإن كانت لا تتجاوز الطابقين أو الثلاثة . وهناك على بعد أمتار من أمامنا لوحة ملونة للقدس يظهر فيها مسجد قبة الصخرة بقبته الذهبية ، وأعلام خضراء تحيط باللوحة من كل جانب . وليس ببعيد عنها يافطة كُتبت عليها مقولة الإمام موسى الصدر «إن شرف القدس يأبى أن يتحرر إلا على أيدي المؤمنين الشرفاء» . أكملنا طريقنا وتزايد عدد الأعلام الخضراء على حافتي الطريق حتى وصلنا عند الشارع الرئيسي ، الذي هو بمثابة خط فاصل بين نهاية مخيم شاتيلا وبداية منطقة الغبيري .

وقفنا على الرصيف نواجه الطريق الرئيسي ، وكان عدد

الأعـلام الخضـراء ، وأعـلام حـركـة أمل لافـتـاً . كـان يعلو كل عامود كـهرباء أو إشـارة ضـوئية أو أي عامود آخـر ثلاثة أو أربعة أعـلام حركـة أمل المميزة بلونها الأخضر والذي تتوسطه كلمـة «أمل» مكتـوبة على شكل دائرة . وعند كل مـجمـوعـة أعـلام هنالك صورة للإمام موسى الصـدر . عبرنا هذا الشارع الفاصل بين مخيم شـاتيلا ومنطقة الغبيري ، والذي يؤدي إلى السـفارة الكويتية ، واتجهنا إلى داخل منطقة الغبيري ، حيث بدا وكأننا انتقلنا إلى عالـم آخر ، حيث كانت جميع النسـاء تقريباً يلبسن الشـادور الأسود الفضـفـاض وحتى الـشابات منهن كن يلبسنه أيضاً . مشينا في أحياء المنطقة والتي كـانت تختفي فيها أعلام حـركـة أمل رويداً رويداً لـتـحلّ مـحلهـا يافطات دعـاء للحسن والحسين وتمجـد شـهـداء كـربلاء . وحـتى في شـرفـات المنازل وخلف الـغـسـيل المنشـور على الحـبـال ترتفع سـجادات جـدران تعظم الحسين كسيد الشهداء .

وصلنا بالقرب من مبنى كشافة الإمام المهدي عند الدوار ، وانعطفنا يميناً باتجاه الجنوب ، وإذ به يستوقفني بشير أمام محل «زهرة» للتحف عله يستحوذ على شيء من تاريخ لبنان القديم ، فدخلنا نلقي نظرة ، وكـان ابن صـاحب المحل لطيفاً أخـذ يشـرح لبـشـيـر الكثـيـر من القطع الأثرية والقـديمة . ومـا هي إلا نصف سـاعـة أو أكـثـر قليـلاً حـتى خـرجنا والفـرحـة بادية على وجـه بشير ، الذي خرج بقطعتين من الخزف تعودان إلى مئتي عام أو

أكثر . وكانت القطعتان بالفعل جميلتين . استمررنا بالسير حتى وصلنا إلى مسجد الحي الذي أبهر بشير . كنت متأكداً من أن بشير سيؤخذ بجمال هذا المسجد أولاً ثم من وجوده هنا ، في بيروت ثانياً . وقف بشير مشدوهاً يتأمل المسجد بإعجاب وكأنه يدرس أو يتفحص عملاً فنياً . كان المسجد عبارة عن مبنى مربع نصفه مغطى بالحجر الأبيض والآخر بالحجر الفيروزي ، تتخللها تصاميم هندسية ملونة . وتكسو المسجد قبة ضخمة من قباب أصفهان مغطاة بالفيروز ، ودقة التنفيذ تجعل التصاميم تبدو وكأنها مطرزة تطريزاً بالألوان الصفراء والحمراء . والتصاميم هي إما أشكال هندسية أو آيات قرآنية في غاية الجمال والدقة .

- هل نحن في أصفهان؟

ضحكت ، وعقبت أن هنالك مساجد أخرى بهذا التصميم ليست بعيدة من مكاننا ، كمسجد مستشفى الرسول الأعظم وغيره وجميعها بالروعة نفسها . بالرغم من اهتمام بشير بزيارة تلك المساجد الفريدة إلا أنه اقترح أن نزورها في يوم آخر .

- لنزرها في يوم آخر لأنني أكاد أموت من التعب ، ولن أستطيع أن آخذ وقتي بدراستها وتصويرها بالشكل الكافي .

- وأنا تعب والله ، ولكن كان السير ممتعاً لأقصى حد .

- معك كل الحق ، لم أشعر بهذه الساعات الثلاث كيف

مـرّت ، ولكنني ممنون لـك على هذه الرحلة التي أعـادت لـي الكثير من الذكريات الحلوة منها والمرة .

- بالفعل ، كانت ممتعة وقد شعرت أثناءها بأننا لا نزال في أيام زمـان ، أيام الدراسـة عندمـا كنّا نذهب نتـمـشى في كل أرجاء بيروت .

- آه على أيام زمـان ، آه . كنّا نستطيع السيـر من طرابلس إلى صور دون تعب أو كلل . يا ليت الشباب يعود يوماً .

ضحكنا على جملته الأخيرة وقررنا أن نستقل تاكسي لنذهب إلى منطقة البربير ، حيث ركنت سيارتي . وما كدنا نعبر الشارع كي نستوقف تاكسي في الاتجاه الصحيح حتى شممنا رائحة شاورما ، فالتفتّ إلى بشير سائلاً إياه إن كان يريد أن يأكل شطيرة شاورما . وكان الجواب بديهياً ؛ إذ كان الجوع قد فتك بنا ولم نشعر به إلا عندما شممنا رائحة الشاورما ، والمشي المتواصل قد أفلح بهضم الفروجة التي أكلناها . لم يكن مطعم «جعفر» للشاورما بعيداً بل بالكاد بضعة أمتار على يميننا . استمتع كل واحد منا بشطيرة شاروما ثم بشطيرة ثانية . وكان عباس الشاب الذي يحضّر الشطائر ماهراً بالفعل ؛ إذ كانت شطائره من ألذ ما أكلت ، ولعل الجوع كان عاملاً مساعداً أيضاً .

-٢٠-

- يا ابن الكلب ، قضيت على واحد من خيرة رفاقنا ، بل خيرة من أنجب لبنان من أجل أن حبيبتك غيّرت طائفتها؟ يا حيوان ، يا كلب ، فرّطت بخيرة شبابنا من أجل امرأة رفضتك؟ أهذا هو السبب؟

هذا ما قاله مسؤول الحزب لنجيب بعد أن كانوا قد انتهوا من استجوابه . لم يدر المسؤول إن كان سمعه نجيب أم لا ، فقد كان منهكاً ، يحرك رأسه وكأنه يهذي ، ووجهه مصبوغاً بدمائه ، وآثار اللكمات والصفعات واضحة على وجهه وعنقه وساعديْه .

فبعد أن وضعوه في سيارة الأمن العام لم يكلموه بكلمة واحدة ، بالرغم من إلحاحه لمعرفة احتجازه ، وكان يعتقد أن الأمن العام هو بالفعل من خطفه . ولكن ما إن اقتربت السيارة من مركز الحزب ، حتى توقف قلبه عن الخفقان ، أو هكذا شعر هو ، بل هكذا تمنى . اصفر وجهه ونشف الدم في جسده ؛ إذ أدرك المصير الذي ينتظره . . . وهنا أخذ بالبكاء كالطفل والدعاء لهم أن يتركوه ، وأنه قد مرّ على هذا كله أكثر من ثلاثين عاماً . أما أمين ومن معه ، فنظروا إليه نظرة احتقار وجروه من ياقته

إلى داخل مقر الحزب .

قضى نجيب ساعتيْن أو أكثر في المقر ذاق خلالها أنواع الضرب واللكم ، كان الضرب يتم على دفعات ، كل منها يستمر لخمس أو عشر دقائق ، تليها فترة استجواب تستمر قدر تجاوب نجيب ، ثم ما يلبث أن تبدأ اللعبة من جديد . . . كانوا يريدون أن يعرفوا كل تفاصيل ما اقترفه نجيب بخصوص أبي رياض أو غيره . وبعد ساعتيْن أو أكثر كان واضحاً لهم أنهم حصلوا على كل ما يريدونه ، وأنه لم يبق لنجيب ما يضيفه .

صرخ به المسؤول :

– خيرة رفاقنا وخيرة أبناء لبنان ذهب بسببك يا كلب . يا كلب .

أنهى المسؤول جملته ، ثم رفع يده بمسدس وأطلق على رأس نجيب طلقة واحدة أردته قتيلاً .

-٢١-

توقف التاكسي عند سيارتي وانطلقنا بها إلى قاعة المعارض ، حيث كان على بشير أن يتأكد من مجرى أمور التحضير للمعرض ، من تعليق اللوحات وضبط الإضاءة الملائمة التي توفر الإنارة الصحيحة للرؤية ، دون أن تؤذي اللوحات ، والتأكد من أن البطاقات التي توضح اسم الفنان وعنوان اللوحة وموضوعها كلها موضوعة بالشكل الصحيح بجانب كل لوحة ، كما كان عليه أن يتأكد من أن المنشورات قد طُبعت بالطريقة الصحيحة الخ من الأمور المتعلقة بهكذا حدث ، والذي سيتم بعد يومْين .

انطلقنا بالسيارة على كورنيش المزرعة ومنه أخذنا جادة سليم سلام إذ كان أقل ازدحاماً من جادة بشارة الخوري . كنت أسير بسرعة متوسطة لأتيح لبشير فرصة أن يتفرج على المدينة ويستعيد ذكرياته . كان صامتاً يسترجع ما استطاع من ذاكرته ، فالكثير قد تغيّر من مبانٍ أو محلات أو أحياء . وكان بين الفينة والأخرى يسأل عن هذا وذاك . وعندما انطلقنا على جادة سليم سلام تعجب من هذا الشارع ، إذ لم يكن يذكر أنه كان موجوداً على أيامه ، فوصفت له أين يقع الشارع ، وأن على يسارنا رأس

بيروت بأحيائه الخاصة . فجادة سليم سلام هي أيضاً خط من الخطوط أو الفواصل المهمة في بيروت ، حيث تقع غربه أحياء فردان وتلة الخياط والروشة والحمرا والجامعة الأمريكية ، وكل تلك الأحياء الراقية ذات الطبقة الخاصة ومتطلباتهم الكمالية الخاصة .

عند نهاية جادة سليم سلام اضطررنا أن ننعطف يساراً ؛ لأن لا طريق من خلال أسواق وسط بيروت ، فانطلقنا على جادة فؤاد شهاب ، والذي ينحني يميناً ثم يصل إلى تقاطع تتقاطع عنده أسماء شوارع تغطي نصف تاريخ لبنان القديم والحديث . لم أر تقاطع واختلاط أسماء شوارع في مكان واحد في أي مدينة أخرى كما هنا عند هذه النقطة . فجادة فؤاد شهاب تتحول إلى فخر الدين ومن ثمّ إلى ابن سينا ، ورفيق الحريري حاضر عند التقاطع ليصير وفيق سنو ، ومن ثم المير مجيد أرسلان . كل شعوب لبنان القديمة والحديثة بكل طوائفها ممثلة في تلك الأمتار . لم أنقل خواطري إلى بشير إذ كان يستمتع بمناظر المباني الشاهقة والجديدة ، والتي أضافت رونقاً إلى جمال المنطقة المطلة على البحر .

وعند الإشارة التالية انعطفنا يساراً لندخل إلى اللسان البحري الذي يضم مركز بيروت للمعارض ، إضافة إلى مراكز أخرى ومطاعم ومقاه . كان مركز المعارض أول مبنى يصادفنا ، فركنت السيارة إلى يساره وترجلنا .

في الحقيقة ، لم أكن قد حضرت إلى مركز بيروت للمعارض من قبل ، ولذلك كان يزداد إعجابي بتصميمه مع كل خطوة نخطو بها نحوه . فالمبنى عبارة عن مستطيل بارتفاع طابق واحد ، واجهته من الزجاج ويعلوه سقف بالارتفاع نفسه من المعدن فضيّ اللون ، والجميل بالمبنى أنه محاط ببركة ماء من جهاته الأربع اللهم إلا من بضعة أمتار أمام المدخل في الواجهة الرئيسية ، فيوحى لك أن المبنى بأكمله عائم على سطح الماء . صعدنا الاثنتي عشرة درجة المصنوعة من الغرانيت الرمادي باتجاه المدخل ، وكان الممشى حول مركز المعارض أيضاً مغطى بأحجار الغرانيت المربعة الصغيرة .

صرنا أمام الباب في الجانب الأقصر من المستطيل ، ودخلنا المركز . أول ما يستقبلك عند دخولك هو ردهة الاستقبال والتي هي بعمق خمسة أمتار على امتداد عرض المبنى ، وهنالك طاولتا استقبال واستعلامات ، واحدة على اليمين والأخرى على اليسار . انتبهت إلى أن ارتفاع القاعة من الداخل ليس كما تهيأ لي من الخارج ، بل يمتد الارتفاع إلى أكثر من أربعة أمتار ، موفراً ارتفاعاً عالياً وموحياً بأهمية المكان . وإن كانت الردهة خالية من الموظفين إلا أنها كانت تعجّ بعناصر الأمن والشرطة وموظفي الحراسة ، الذين كان واجبهم الحفاظ على المعروضات التي أتى بها بشير والتي لا تقدر بثمن . ومن قاعة العرض خلف ردهة الاستقبال كان صوت العمال والموظفين يصل إلينا .

مشينا إلى قاعة العرض ، وكانت قاعة كبيرة بحدود الثلاثين متراً بثلاثين متراً ، ومع حجم القاعة الكبير يتضح أن السقف ليس مستوياً ، ولكن ارتفاع السقف على طول القاعة هو أكثر من خمسة أمتار ، وينحدر تدريجياً على الجانبين ليهبط إلى دون الأربعة أمتار . كانت القاعة مقسمة إلى أقسام أو مساحات بقواطع جدارية بيضاء اللون ، لا يزيد ارتفاعها على ثلاثة أمتار مكونة شبه غرف مختلفة المساحات لعرض اللوحات ، وكانت كل اللوحات تقريباً قد عُلّقت في أماكنها على الجدران ، والموظفون منهمكون بالكثير من الأمور الأخرى ، فذهب إليهم بشير ليطّلع على مجرى الأمور .

كانت فرصة لي أن أتجول بالمعرض ولآخذ راحتي بتأمل اللوحات ، دون أن يعكرّ عليّ تفكيري أو تركيزي أحد من الزوار أو الأطفال المزعجين ، كما يحدث في الأيام العادية بعد أن يكون المعرض قد افتتح للناس . وأول ما بحثت عنه وتوجهت إليه كان قسم الفنان سِرا وفناني الحركة التنقيطية الآخرين ، فقد كنت تواقاً لأرى هذه اللوحات عن قرب . كان قسم لوحات الحركة التنقيطية يحتوي على عدد لا بأس به من لوحات بعض فناني تلك الحركة ، منهم سِرا وسيناج ولوس وآخرون ، وقد عرض ما بين لوحتين وخمس لوحات لكل منهم ، وكان نصيب الأسد لسِرا إذ شمل المعرض لوحته الشهيرة «عصر يوم أحد عند جزيرة لاغراند جاته» ، بالإضافة

إلى «عرض سيرك» و«نهر السين» واثنتين عن طبيعة باريس ، وللفنان سناج ثلاث لوحات منها «شجرة الصنوبر» ولوحة «قصر البابا» ، ولوحة «امرأة تخيط» للفنان لوس ، إضافة إلى منظر «كنيسة نوتردام» . وأخذت أقرأ ما قد كُتب من موجز عن كل لوحة ، كما حرصت على أن أصور اللوحات ، ولم أكن أعبأ بأن التصوير ممنوع . كما قلت ، كان هنالك عدد لا بأس به من لوحات التنقيطية ، ولكن أكبرها وأكثرها إثارة كانت لوحة «عصر يوم الأحد» لسِرا ، ليس من ناحية حجمها الكبير فحسب (إذ كانت أكبر من ثلاثة أمتار بمترين بقليل) ، ولكن كانت أيضاً مدهشة من حيث التنفيذ . واللوحة تصور أناساً على ضفة النهر يستمتعون بقضاء عصر يوم الأحد بالسير في الحديقة أو بالجلوس والتحدث مع الأصدقاء ، أو بالتجديف في النهر بينما الأطفال يركضون ويلعبون . لون النهر الأزرق يحتل الزاوية اليسرى في أعلى اللوحة ، بينما نصف اللوحة الأوسط يغلب عليه اللون الأخضر الفاتح ، والثلث الأسفل من اللوحة يطغى عليه الأخضر الداكن ، والناس بأحجام مختلفة منها القريب ومنها البعيد تملأ اللوحة وتظهر في أعلى اللوحة ، إلى اليمين أجذع أشجار وشجرة كبيرة في الربع الأعلى من اللوحة . وبالرغم من المساحة الهائلة للّوحة إلا أنها مرسومة نقطة نقطة وكل نقطة لا يزيد حجمها على ميليمترات قليلة ، مما يعني أن اللوحة مكونة من أكثر من مليون نقطة . وكان

التقارب بين النقاط مختلفة الألوان رائعاً ، يجعلك تشعر بشيء من الغبطة والسرور وأنت ترى النقاط المختلفة ألواناً وأحجاماً تقف جنباً إلى جنب لتشكل مجتمعة لوناً آخر ، فأُقرّب وجهي من اللوحة وأرى نقطة صفراء بجانب نقطة حمراء ، وأخرى صفراء ضاربة إلى الليموني ، بينما نقطة أخرى أقل احمراراً من أختها ، ثم أبتعد بضع خطوات إلى الوراء فتختفي النقاط ، تختفي تماماً وكأنه سحر . ولكن في مكانها تتشكل نقطة برتقالية متوسطة الحجم التي هي نتاج النقاط الصفراء والحمراء . والبقع الليلكية إنما هي نتاج نقاط زرقاء وحمراء مختلفة اجتمعت لتشكل لوناً جديداً جذاباً هو الليلكي ، والبقع الخضراء هي نتاج النقاط الزرقاء والصفراء . وكل سنتيمتر من اللوحة إنما هو هكذا . ولوحات سِرا الأخرى هي بالأسلوب نفسه ولكنها أصغر حجماً ، بينما لوحات الفنانين الآخرين ليست بالدقة نفسها حيث إنهم استعملوا نقاطاً أكبر حجماً من أسلوب سِرا ، حتى إنه يتهيأ لك أنك ترى لوحات الفنان فان-غو بدلاً من سيناج ، فضربات فرشاته ظاهرة ، والأمر نفسه بالنسبة للوحات لوس . كانت كلها لوحات رائعة لا شك ، ولكن أسلوب سِرا كان الأجمل والأدق .

بقيت فترة وأنا أحدق بتفاصيل لوحة «عصر الأحد» أقترب منها وأبتعد ، ثم أتقدم وأتفحصها لأعود فأبتعد ، وآخذ صورة عن قرب ثم عن بعد ، وصورة أخرى بالماكرو حتى تظهر

تفاصيل كل نقطة . كانت بالنسبة لي تجربة مثيرة ومسلية في الوقت نفسه .

بعد أن اكتفيت من لوحة «عصر الأحد» توجهت إلى لوحات ماندريان ، والتي كانت قريبة من اللوحات التنقيطية ، وأخذت أحدق بلوحته الشهيرة والتي كنت أزين مكتبي بنسخة منها . كان لحظة رهيبة تلك أن ترى أمامك مباشرة ، دون أي حاجز أو فاصل ، لوحة من أشهر الأعمال الفنية في العالم ، والتي كانت من أجمل اللوحات لديك وأكثرها محبة لقلبك . وقفت مقابلها أتفرج عليها ، وعلى يميني لوحة سِرا وأخذت أعاين تفاصيل لوحة موندريان . كانت المستطيلات المختلفة الألوان زاهية بألوانها الحمراء والصفراء والزرقاء ، وبينها مستطيلات بيضاء ، بينما الخطوط السوداء كفواصل بين كل مستطيل وآخر . كانت لوحة بحجم متوسط ولكن ليس بحجم لوحة سِرا ، إلا أن الابتسامة ارتسمت على شفتيّ عندما رأيتها لأنني أرى شيئاً أملك نسخة منه في مكتبي ، ولوحة أنظر إليها يومياً لسنوات عدة في مكتبي وها أنا الآن أرى الأصل أمامي . أرى اللوحة التي رسمها موندريان بيديه ، كما أرى آثار فرشاته على اللوحة ، هذه الآثار التي تعود إلى النصف الأول من القرن الماضي ، ها أنا أراها أمامي . ولكن فجأة ، شعرت بالقشعريرة تسري في بدني ، وبدأت الخطوط السوداء تتحرك وتتلوى وكأنها ثعبان أو ثعابين تقوم من سبات عميق طويل أو كأنها

عصى موسى . فتحت عينيّ على أشدهما ونظرت مرة أخرى فبدا كل شيء طبيعياً . نظرت إلى لوحة سِرا وبدت رائعة من مكاني بألوانها المختلطة والباهية . أعدت النظر إلى لوحة موندريان مرة أخرى ، فكانت قد عادت إلى شكلها العادي ، فركت عينيّ حتى أتأكد فكانت كذلك ، إلا أنني لم أعد أرى فيها ما كنت أراه من جمالية ، والذي كان قد حببّني فيها ، بل بدت المستطيلات مقطعة مفصولة عن بعضها البعض ، وحتى المستطيلات البيضاء لم تكن لتوحد اللوحة وتجعل من الأجزاء وحدة متكاملة ، بل بدت وكأن الألوان المختلفة تحتاج إلى اللون الأبيض المحايد بينها ليفصلها عن بعضها البعض ، بدل أن يوحدها في اللوحة ، بينما بدت الخطوط السوداء كثعابين فصلٍ بين المستطيلات ، ولتؤكد على عدم اندماج هذا اللون بذاك ، حتى يحافظ كل لون على شخصيته وتكوينه ، وكي لا يتأثر بالألوان الأخرى وتشوبه الشوائب منها . ولأول مرة منذ بدأت أعي فن موندريان ، بدت لي تلك اللوحة فاقدة للوحدة في تكوينها ، وأن انفصال الألوان لا يخدم اللوحة من هذه الناحية ، بل يجسد ويؤكد على تقسيمها وعدم اندماجها .

أما في لوحة «عصر الأحد» فهنالك كمال في اللوحة كلها ، بالرغم من أن الألوان هي على طبيعتها الأساسية وليست مختلطة ، تماماً كما عند موندريان . ولكن الفرق أن النقاط عند سِرا صغيرة جداً ولا توجد أي خطوط أو فواصل

بينها . فعندما تنظر إلى اللوحة عن قرب ترى كل نقطة وترى أن كل نقطة قد حافظت على لونها الأساسي وشخصيتها وتكوينها ، فهي لا تزال هنالك بحد ذاتها ، ولكن إن نظرت من مسافة بعيدة اختلطت هذه النقاط لتشكل لوحة كاملة متكاملة ذات وحدة وتوازن ، وكل لون يساهم مع الألوان الأخرى في تكوين شيء أو لون جديد رائع . فالفرق أن سِرا وبعكس موندريان لم يجمع كل لون في مستطيل مستقل ، بل وضع كل نقطة بجانب نقطة من لون مختلف ، حتى يخلقوا شيئاً جديداً مثيراً وجميلاً . كنت قد وقعت بحب لوحات سِرا وسحرها وجمالها . اتجهت إلى لوحة «عصر الأحد» مرة أخرى ، وفي تلك اللحظة ظهر بشير وكانت علامات الرضا بادية على وجهه ، فأمور تجهيز المعرض تبدو أنها ماضية على قدم وساق .

– ها ، أراك تستمتع بلوحة «عصر الأحد» لسِرا!! كنت أعتقد أنني سأراك أمام لوحة موندريان .

– يا بشير ، أعتقد أنه قد حان وقت أن تَحَلّ نسخة من لوحة «عصر الأحد» مكان نسخة موندريان في مكتبي . . . . بل في كل البلد .

المؤلف في سطور

- فلسطيني من مواليد بيروت .
- بكالوريوس في الهندسة المعمارية .
- ماجستير تخطيط مدن .
- ماجستير هندسة مواصلات .
- ماجستير في الأدب العربي الحديث .

يمكنكم التواصل مع المؤلف من خلال صفحته الإلكترونية :

www.khaledshammout.com

من مؤلفات الكاتب:

- الربيع (رواية) ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ٢٠١٤ .
- من الذاكرة حتى الأمل ، دراسة في قصص غسان كنفاني القصيرة ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ٢٠١٢ .
- آية (مجموعة قصص قصيرة) ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ٢٠١١ .
- اللون في الرواية العربية : دراسة تحليلية ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ٢٠١٦ .

- Contributor to the "Planning and Urban Design Standards". WileyGraphic Standards Publications, Wiley, 2006.
- "Guidance for Developing and Deploying Real-Time. TravelerInformation Systems for Transit", Federal Transit Administration,Washington, D.C., 2003.
- "Strategies for Improved Traveler Information", TCRP Report,Washington, D.C., 2003.

BEIRUT, LEBANON AND MONDRIAN



بيروت، لبنان وموندريان



من منطقة سن الفيل تبدأ هذه الرواية لتمر عبر المتحف وكورنيش المزرعة وطريق الجديدة والغبيري إلى الحمرا ومنطقة المعارض لتغطي مساحة نصف قرن من زمن بيروت ولبنان . بيروت التي هي بحجم راحة اليد كما قال الشاعر أمجد ناصر ، هي صغيرة حقاً ولكن تاريخها كبير ومشاكلها كبيرة والمؤامرات عليها أكبر .

بشير المغترب يدرك أن المشكلة هي أن اللبناني لا يزال يعيش في الماضي ولا يستطيع أن ينفصل عنه . ويقول : "أتدري ، نحن اللبنانيون ، شعب يبقى متمسكاً بالتقاليد ، حتى البالية منها يبقى متمسكاً بها ولا يرى سبباً ليتحرر منها أو أن يطورها مع تطور الوقت والزمن والمكان والحال .

نحن ناس نولد على تقليد ونموت عليه دون أن نحاول حتى أن نفكر بجدوى ذلك التقليد أو مدى فعاليته ."
ومن بين رائحة الموت وذكريات المجازر والحواجز الطيّارة والقصف والحب وأكلة اللوز الأخضر ، ومن خلال ومضات الذاكرة والخطوط ورصاص الإغتيال ، يكتشف فارس سبب علّة لبنان . . . يُدرك ذلك في نهاية الأمر . . . والأهم لديه أن يكتشف الآخرون ما اكتشفه هو .



